رواية

ريتشيل تريزايس

داخل وخارج حوض السمكة الذهبية

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

داخل وخارج
حوض السمكة الذهبية

ريتشيل تريزايس

رواية

ترجمة: عبد الرحيم يوسف

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

عبد الرحيم يوسف/ من مواليد الإسكندرية في 1975. تخرج من قسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية جامعة الإسكندرية عام 1997. يعمل مُدرِّسًا ومترجمًا حرًا. شارك كمحرر مساعد للترجمة في مجلة مينا من عام 2005 إلى 2009. نشر ترجمات في جريدة أخبار الأدب المصرية وموقع مدى مصر ويرأس تحرير موقع (ترى البحر). ترجم عددا من التقارير كمترجم حر لمنظمة هيومن رايتس ووتش واليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة للسكان. نشر سبعة دواوين بالعامية المصرية خمسة عشر كتابا مترجما في دور نشر مختلفة، وفاز عن ترجمته لكتاب (ثلاث دراسات حول الأخلاق والفضيلة) لبرنارد ماندفيل والصادر عن دار صفصافة بجائزة الدولة التشجيعية للآداب فرع ترجمة الأعمال الفكرية لعام 2016.

.....

داخل وخارج حوض السمكة الذهبية

طبعة 2020

رقم الإيـــــداع: 2020/15960

الترقيم الدولي: 978-977-821-165-8

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

In and Out of the Goldfishbowl © 2000 by Rachel Trezise
Originally published by Parthian, Cardigan, Wales

'Published with the support of a Wales Literature Exchange translation award through Arts Council of Wales National Lottery Funding'

Cyfnewidfa Lên Cymru
Wales Literature Exchange

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

تريزايس، ريتشيل
داخل وخارج حوض السمكة الذهبية: رواية/
تأليف: ريتشيل تريزايس، ترجمة: عبد الرحيم يوسف
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٠
١٩٨ ص، ٢٠ سم
تدمك ٨-١٦٥-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- الفصص الانجليزية
أ- يوسف، عبد الرحيم (مترجم)
ب- العنوان

٨٢٣

رقم الإيداع: ١٥٩٦٠/ ٢٠٢٠

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

In and Out of the Goldfish Bowl

By

Rachel Trezise

تمر السنين، هل سيغص حلقي بالدموع

حتى لا يبقى في النهاية أي شيء

جرح آخر وأنت تعرف أننا **بسطاء**

بسطاء بسطاء أكثر من اللازم

توري آموس

أغنية «**Silent All These Years/ صامتا** كل هذه السنين»

من ألبومها (**Little Earthquakes/ زلازل صغيرة**)

مقدمة

قبل ريتشيل تريزايس كان هناك شيئان لم أعرفهما قط في وادينا. الأول: صوت أدبي أنثوي من رونذا. والثاني كاتب يجرؤ على كشف الظلام والاختلال واليأس الذين يمكن أن يوجدوا أسفل الكليشيهات الدافئة للحياة المجتمعية التي مازلنا نتشبث بها.

كان هذا استيعابا مزعجا لكنه ضروري تماما. هكذا كنت، فتاة من الوادي منفية عن اقتناع في كارديف، أتفكر في رونذا من بعيد. فخورة بماضيها. وغير مستعدة للاعتراف ببعض الحقائق الأصعب الخاصة بحاضرها.

كانت رونذا خاصتي منقوعة في نوستالجيا التاريخ العائلي. ليس بمعنى أن هذه الحكايات كانت لطيفة ومريحة، بالطبع. جدَّاي عاملا المناجم اللذان لم أعرفهما قط، مات كلاهما في الخمسينيات من عمريهما – أحدهما من الغبار كما زُعم، والآخر مشلولا في حادثة من حوادث المناجم. وهناك الجدة التي رأت أربعة من أطفالها الاثني عشر يموتون قبل عيد ميلادهم السادس والتي ضاعت حياتها في قسوة وشقاء الكدح المنزلي.

لكن سرديتنا عن رونذا كانت انتقائية. وكانت مشيدة على النظر إلى الوراء نحو نبل الرجال والنساء الذين تحملوا تلك

المشاق ورأوا في التعليم منفذا للهروب وفي القرابة الاجتماعية استراتيجية للبقاء.

عندما كنت أشب عن الطوق في قرية لوينبيا في سبعينيات القرن العشرين، كان هناك كتاب على رف والديّ يستكشف قيم هذه الوديان وقد شكَّل منظور مرآتي الخلفية. كان اسمه (رونذا الماضي والحاضر)، وضم هذا المجلد الكبير صورة مثيرة للمشاعر لعامل مناجم في الثانية عشر من عمره تغطت سترته بالغبار، كما احتوى على اثني عشر مقالا وخطاب واحد إلى وزير الدولة الويلزي وقتها.

كانت المقالات كلها مكتوبة بواسطة رجال، وقد خرجت من سلسلة محاضرات أُلقيت في أوائل سبعينيات القرن العشرين في مدرسة تروركي الشاملة الجديدة – حيث ستكون ريتشيل تلميذة بعدها بعقدين. ورغم أن العنوان كان (رونذا الماضي والحاضر)، إلا أن التقسيم لم يكن متساويا. هيمن التاريخ على الكتاب أكثر من الأحوال الجارية.

وكما ذكرت المقدمة، حاولت المحاضرات القبض على تفاصيل «الخبرة الرونذية، المرارة الطويلة للكساد، الصراع بين العامل والرأسمالي، مكان الكنيسة وغناء الكورال، صدام السياسة، القتال العنيد لتوفير المدارس الثانوية، تأثير مؤسسات العمال، حس الدعابة والكبرياء والحنان لدى الناس العاديين.»

الفصلان الأخيران فقط هما اللذان تعاملا مع تحديات الحياة ما بعد الصناعية في الوادي. ورغم أن المقال المعنون بـ «تخطيط مستقبل من أجل أهل رونذا» أوجز بعض الإحصاءات القاسية عن البطالة والحرمان وأزمة إسكان متزايدة، إلا أنه كان مازال هناك تردد في تفصيل المشكلات الاجتماعية الحتمية التي سببتها هذه العوامل.

كانت حساسية المؤلف في وجه النقد الخارجي واضحة: «تميل البرامج التليفزيونية حول رونذا إلى التأكيد المفرط على طبيعة المجتمع المحروم – فيعرضون مجاري بها سيارات قديمة بدلا من تلك التي لا توجد بها هذه الأشياء. ويعرضون الأسوأ من البيوت القديمة بدلا من الأفضل. ويؤكدون على الأسوأ من الحياة المجتمعية بدلا من الأفضل.»

لكن الجملة الأخيرة من الكتاب -والتي تأتي هكذا بعد أكثر من 200 صفحة من الفخر الرونذي النوستالجي- كانت مدمرة في يأسها: «الوديان وطريقتها في الحياة، بإحساسها المجتمعي، بتاريخها القصير لكن الإنساني جدا، هي جزء أساسي من شخصية وتقاليد ويلز. الوديان تموت. ويلز لن تكون هي نفسها بدونها.»

في 1978، بعد ثلاث سنوات من كتابة هذه الكلمات، ولدت ريتشيل تريزايس في رونذا هذه المأزومة والمتغيرة. وإذا كان

عائد ذلك الكتاب على رف والديّ هو صرخة لطلب العون، فإن الرواية شبه السيرة الذاتية التي صاغتها ريتشيل من الخبرات البائسة لطفولتها وصباها في الوديان هي صرخة غضب.

(داخل وخارج حوض السمكة الذهبية) تصور بشجاعة ودون أن يطرف لها جفن فتاة صغيرة تشب في عائلة يمزقها العنف الأسري والاعتماد على الكحول والمخدرات والإساءة للأطفال. يتتبع صوت الراوية بضمير المتكلم قصة ريبيكا تريجيانّي وهي تحاول استكشاف الطفولة والصبا مع أم مدمنة على الكحول وأب متعسف غائب وزوج أم يخضعها لاعتداءات جنسية متكررة.

هذه الرواية الفطرية والمنطلقة من العاطفة الخام والوحشية، تتجاوز مونولوجها الداخلي المعقد لشخصيتها الرئيسية كي تتفحص الصعوبات الموجودة أمام شخصية أخرى – رونذا نفسها. لا نرى كثيرا من ندوب الانحدار الصناعي بقدر ما نرى الجراح المفتوحة المبتلى بها هؤلاء الذين يصارعون المشكلات الاجتماعية-الاقتصادية للتسعينيات من القرن العشرين.

ربما تكون حركة (كول سيمرو)[1] موجودة في كارديف، بيد أنه لا يوجد أثر لفجر واثق بعد ليل الانحطاط في الطرف الآخر من خط الوادي.

1- حركة ثقافية ويلزية تتمحور حول الموسيقى والأفلام المستقلة وغيرها من المشاريع الفنية التي قامت بها شخصيات ويلزية شابة قبل وأثناء الألفية الجديدة.

لكن مثل ذلك الكاتب العظيم الآخر ابن رونذا: جوين توماس، مازال بمقدور ريتشيل أن تنتزع الضحك من قلب الظلام. يغدو استكشافها لموضوعات المحظور والممنوع أقوى من خلال خفة الدم الجافة واللاذعة القادمة من الوديان والمتخللة لهذا الاستشكاف. ولا نعدم حسا بالحنان والعاطفة أيضا.

لكن الغالب هو الصدق والشجاعة. ها هو صوت شابة يحكي قصة ربما يفضل الكثيرون إبقاءها مسكوتا عنها لأنها ليست حياة الوديان كما نود أن نراها. إن رواية (داخل وخارج حوض السمكة الذهبية) لا تزيح فقط نظاراتنا الوردية التي ننظر بها إلى رونذا، بل تنتزعها وتحطمها تحت الأقدام.

وبفعلها هذا تقدم درسا لبقية ويلز. كم نسعى للاحتفال بنجاحاتنا بوطنية عمياء بدلا من تفحص حالات فشلنا بتحليل ناضج ومدروس؟

هؤلاء الذين لا يستطيعون التعامل مع رونذا الخاصة بريتشيل لا ينبغي أن تعميهم ببساطة صدمة القيم في (داخل وخارج حوض السمكة الذهبية). فهي أكثر امتلاء بدرجات من الاختلاف والفروق عن ذلك. لأنها، في النهاية، قصة نجاة تعتمد على المرونة والتحدي اللذين ميزا رونذا في الماضي والحاضر.

لعلي أضفيت سمة رومانسية على قيم الوديان الخاصة بجيل

أجدادي، لكن لا يوجد شيء مبتذل أو كليشيهي فيما يتعلق بقوة شخصية الإناث التي تجلت أمامي وتم تمريرها بأمل كبير – قوة مازلت أراها كسمة خاصة برونذا.

وفي هذه الرواية، بينما تحاول ريبيكا التغلب على آثار صدمات نشأتها، تثبت القوة الأنثوية محوريتها. نرى الجدة المريضة بمرض عضال -امرأة وديان تقليدية- تمرر قوتها "كهدية مغلفة" لحفيدتها.

تلك هي اللحظة التي تلتقي فيها رونذا الماضي برونذا الحاضر. وكما يثبت سرد ريتشيل تريزايس الرائد، نحن بحاجة لتقدير كلتيهما إذا كان لنا أن نفهم رونذا المستقبل.

كارولين هيت[2]

2- كارولين هيت مذيعة وصحفية ولدت في لوينبيا برونذا ودرست اللغة الإنجليزية في جامعة أكسفورد. وهي منتجة تليفزيونية وإذاعية، وكاتبة عمود صحفي حاصلة على جوائز ومؤلفة كتابين عن الرياضة والثقافة الويلزيين.

1

كانت حجرة نوم أمي مضاءة دائما على نحو مبهج بمصباح ساطع كبير، له ظلة ملمومة بشكل جميل ومشغولة بالدانتيلا. صناعة منزلية، مثلها مثل أغلب مفروشات البيت. وكان مُشغّل أسطواناتها البلاستيكي الرمادي الغليظ يكيف الهواء بأصوات الأسطوانات الفونوغرافية لتوم جونز أو دوللي بارتون. كنا لنجلس معا أمام مرآتها الطويلة ونغني أغنيات السعادة التي سمعناها من قبل مرات كثيرة. في ذلك الوقت كان غناء دوللي بارتون عن البغاء ودندنة كيني روجرز عن ثمة زواج محطم يبدو طبيعيا تماما، أغان يسعد المرء بها وينضم إلى الآخرين في غنائها. كنت أراقب أمي بإعجاب وهي ترتدي فساتينها الحريرية الجميلة تقريبا كجمالها، وهي تلون جفون عينيها بمستحضر تجميلي براق وتكتسب طولا إضافيا بحذاء عالي الكعب بطول ست بوصات. كان الوقت خريفا وكنت قد كبرت عاما عندما لفت شعرها حول بعض البكرات الوردية الزاعقة. سمعنا سبابا غير واضح يغدو مسموعا في الدور الأرضي.

ارتفع صوت أبي، عميقا كما كان، وهو يطوي معاطف فراء

الأرانب البيضاء والسمراء التي كان قد اشتراها من أجل أمي طوال السبعة عشر عاما الماضية ويدفع بها في غلظة إلى الموقد ماركة (باركر). كان يطعن المعاطف، واحدا واحدا، بقضيب تذكية النار. كان يخطئ التصويب وكنت أقشعر في كل مرة يحتك فيها القضيب بواجهة الموقد المعدنية. ملأتني هذه الجلبة (كنت قد أكملت عامي الرابع للتوّ) بكل الخوف لمرأى معلمة تكشط بأظافرها الهائلة سطح سبورة نظيفة. كانت هذه الجلبة أعلى صوتا؛ ولم أكن محاطة بالدكك وأطفال المدرسة؛ كان هذا يحدث في بيتي ولم تكن امرأة سمينة ترتدي جوارب بُنية سميكة هي من تمثل خطرا. بل كان أبي.

بالعودة إلى حجرة النوم، كنت أنظر مذهولة وبفضول صامت بينما تتساقط الدموع بسرعة من عينيّ أمي، لتفسد في طريقها زينتها التي وضعتها بحرص، وتستقر في صدر أخي ذي الأربعة عشر عاما الذي وقف يواسيها بينما وقفت وحيدة فيما بدا أقرب لحالة من الفوضى.

بدا الأمر وكأني وُلدت في مسار جانبي. أمي وجيمس وأنا دائما في مكان وأبي في مكان آخر. كان زواج سوزان وراي تريجيانّي قد بدأ ينهار. ثمة حد لعشق دام عشرين عاما لصقت به وصمة توتر كبيرة أصبحت واضحة، حتى لشخصي الصغير الغرير.

بعد يومين تقريبا وأنا عائدة إلى البيت من المدرسة اقتربت من الباب الأمامي بينما كان أبي خارجا. لم يلاحظني واندفع إلى سيارته. ظهرت أمي، في حالة من الضعف الشديد محمرة الوجه بآثار دموع حديثة. وعندما جلس أبي في سيارته، صافقا الأبواب وصائحا في اتجاهنا، التقطت أمي زجاجتيّ الحليب الفارغتين من فوق عتبة الباب وألقت بهما نحو السيارة، واحدة بعد الأخرى. أخطأت كلتاهما السيارة التي كانت قد تحركت عندئذ وهبطتا فوق العشب على الناحية الأخرى من الطريق. تحطمت إحداهما على الأرض التي قرصها الصقيع. راقبتُ الموقف في حياد وحيرة مثل المرة الأولى التي رأيت فيها أمي تبكي. أشعلتْ سيجارة. وستكون هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها أبي لزمن طويل.

نادرا ما لاحظت غياب أبي. بقدر ما كان يمكنني أن أفهم، كنا نعيش أنا وجيمس وأمي في نفس البيت، نأكل نفس الطعام، وكانت أمي مازالت جميلة، وبدا ذلك كل ما كنت بحاجة إليه لأستمر في عيش حياة طبيعية.

بدا طبيعيا تماما لي أن والديّ البيولوجيين لم يعودا معا. كل الأمهات والآباء ينفصلون، أليس كذلك؟ وكانت رؤية الأمهات والآباء معا يأخذون أطفالهم من الحضانة تسبب لي استغرابا رهيبا أو غيرة حادة. لم أكن واثقة قط أيهما ما كنت أشعر به. قيل إن صدمة الطلاق أثرت على جيمس أكثر بكثير مني: في النهاية،

كان قد عرف أبانا أكثر مما عرفته بعشرة أعوام، وكان كبيرا بما يكفي لأن يقال له أو لأن يتصور بالضبط ما حدث وأسبابه. وهي الأشياء التي لم يكن لديّ عزاء (أو ربما مشقة) فهمها.

أتساءل أي تأثير كان لطلاق والديّ عليّ. بالتأكيد ليس من الصحة العقلية أن تولد مباشرة وسط معركة بزجاجات الحليب، لكن لأكون صادقة وبقسوة لم أكن أبالي قط ولو قيد أنملة. كانا منفصلين، مطلقين، وكان أبي غائبا لمدة عام قبل أن أكمل عامي الخامس. لم تبق لديّ إلا ذكريات موجزة مبهمة لأبي في البيت. ذات مرة: عشية عيد الميلاد ونحن نجهز البيت. أمي وأنا جاثيتان نفك الأضواء وأبي يزين الشجرة. كلها لحظات قصيرة من الرؤية، كلها خاوية من الحوار. مرة أخرى: أنا وأخي في قارب مع أبينا، نبحر عبر بحيرة ما مليئة بالطين في بورثكول أو باري آيلاند. مصرة (كما أنا دائما) على الاستيلاء على انتباه شخص ما، خلعت حذائي ولسبب ما جوربي الأبيض الذي يغطي الكاحلين وأنا واقفة أتوازن على جانب القارب، أخي يمسك بإحدى ساقيّ والأخرى في الماء، مهددة بالقفز بلا سبب وجيه. حتى هنا يركز عقلي على أصابع قدميّ السمينة المغموسة في الماء البنيّ المثلج أكثر مما يركز على أبي الذي يجدف كالمحموم كي نعود قبل أن أقفز بالفعل. بالطبع هناك ذكريات أخرى، لكن كلها أولية على حد سواء. صور بكاميرا فورية أضاف إليها خيالي لمسته.

وكأني مع ذلك وُلدت لأم عزباء. الفرق الوحيد هو غموض عدم معرفة إن كان هناك أب مهتم موجود هناك في مكان ما. أعرف أنه ليس هناك.

كان رد فعل جيمس على الصدمة أن ألقى بنفسه في أحضان دراسته الثانوية لكتب المستوى العادي والعمل الذي وجده حديثا في جراج بيلي جرانفيل في شارع هندريفادوج. منذ كان في الخامسة من عمره وهب حياته للسيارات، السيارات اللعبة التي كان بمقدوره فكها وإعادة تركيبها. حصل على أول سيارة حقيقية وهو في الثالثة عشر. هيكل سيارة (كابري) لبثت في الحديقة أربعة أعوام بينما هو يحولها ببطء لكن بثقة إلى شيء أحمر لامع جديد تماما. تحول يوم السبت الذي كان يعمل فيه لكسب بعض المال إلى تدريب مهني كامل كسمكري وفني رش سيارات بالرغم من أنه اجتاز كل امتحاناته وكان معلموه يناشدونه كي يظل في الدراسة. كان يغادر البيت كل يوم في السادسة صباحا، ويعود كل مساء في الثامنة مساء، ويعمل أيام الآحاد، وفي أجازات البنوك والأعياد العامة. وبينما يعمل أغلب الناس كي يتعاملوا مع تكاليف العيش، بدا أن جيمس في حاجة إلى العمل البدني ليعيش. وما بدأ كترياق لمشاكل البيت تحول إلى اعتماد مكتسب بالكامل.

انغمس في حركة البانك[3] البريطانية، ولم يعد جسده الطويل المراهق النحيل يسمح له بالمرور من فتحة أي باب في البيت دون أن ينحني، بينما بدت ساقاه الرفيعتان الهزيلتان في قماش الجينز الناحل المشدود على الجلد وكأنهما مصدر جاذبية لكل فتاة في الشارع تستمع إلى فرق (كلاش) أو (بيستولز) أو (يو كاي صابز) الموسيقية. وعندما لم يكن في العمل، كان أصدقاؤه الموسيقيون الصاخبون يملأون أمسياتي بالسعادة والطيش، وهم يداعبون باستمرار أوتار الجيتارات، ويقرعون عدة درامز حمراء زاهية اشتراها جيمس من أول أرباحه. لم تبدُ أمي مختلفة في السن عن المراهقين الذين أقاموا حفلا باهرا مستمرا في بيتنا. كانت تمتطي الدراجات البخارية، وتعزف على الدرامز، وتشرب مما يشربون. وبينما كانت تقوم على خدمة رواد الملهى في بوليكوف كل مساء، كان المتوقع من جيمس وجماعته من الأصدقاء الملونين أن يعتنوا بالطفلة. فتيان وأفلام رعب. من الصعب تخيل التعاملات الأولى للطفل مع الحياة، في عالم تسوده كل هذه البراءة والعاطفة الغضة والمشاعر المتفتحة. لقد عرفت إثارة عميقة في أشكال تذوقي الجديدة للحياة.

3- تيار وحركة ثقافية فرعية ظهرت في الولايات المتحدة وبريطانيا وأستراليا أواسط سبعينيات القرن العشرين، تضم ثقافة البانك الفرعية مجموعة متنوعة من الأيديولوجيات والموضة وأشكال التعبير الأخرى والفن المرئي والرقص والأدب والأفلام. تتميز بوجهات النظر المناهضة للمؤسسة إلى حد كبير، وتعزيز الحرية الفردية، وتتركز على نوع عالٍ عدواني من موسيقى الروك تسمى موسيقى البانك روك.

لو كان باستطاعتي أن أرى ما وراء القناع الذي تميل الأم لوضعه في حضور طفلتها، أتساءل إن كنت لأشعر باختلاف بسيط. أتساءل إن كنت لأبدأ في الشعور بالذنب الذي يتسرب هنا والآن. الذنب الذي سيضربني آخر الأمر في مكان ما أو زمان ما.

كانت أمي تعمل في ثلاث وظائف. نادلة في ملهى، ونادلة في حانة، وبائعة في سوق للطعام المجمد يوم السبت، كل هذا كي تطعمني وتكسوني. وبين محاولات سداد فواتير الكهرباء والمحامي، كانت مضطرة للتضحية بشراء السجائر لتأتي لنا بخبز يومنا. أما مكالمات آخر الليل من بابا نويل فكانت في الحقيقة مكالمات مزعجة، ربما من أبي، وأخيرا غدت محبطة لدرجة أن أمي دفعت مبالغ كبيرة كي تغير رقمنا، مرات كثيرة.

كان الهاتف هو أكثر شيء حي وباق في الذاكرة من ذلك البيت. كنت أراقب أمي وهي تجلس القرفصاء على الوسادة الجلدية السوداء والسماعة ذات اللون الليموني ملتصقة بأذنها. في كل تلك المرات التي كانت تتحدث فيها إلى موظف استقبال ما أو محامٍ ما، كنت أتساءل من كانت هذه المرأة بحق الجحيم. وفي ذلك الوقت أيضا تعلمت هجاء اسم العائلة. كانت تتهجاه بصوت عال كثيرا جدا حتى أني بدأت أردده أسرع وأوضح حتى جرى على لساني بأفصح طريقة وأكثرها طبيعية. تريجيانّي: ت، ر، ي، ج، ي، ا، ن مشددة، ي.

بدت أمي لي كطائر مكسور الجناح. تلك الروح الحرة التي كانت تحب موسيقى الكانترى ونبيذ (شيري)، التي كان يمكنها أن تطير على دراجتها ذات البدال أو دراجتها البخارية وتجد حياة لنفسها في أي مكان، كانت جميلة جدا وعاشقة للمرح. لكن كنت أنا لديها، جناحها المكسور. كانت واعية تماما بهذا الداء لذا ظللت أغلب الوقت هادئة وحسنة السلوك. وعندما كنت أحتاج أو أريد من وقت لآخر انتباهها، كنت أصرخ وكانت هي تشعر بألم في جانب من جسدها وتعرف أنه ليس بمقدورها الطيران وترك طفلتها. وعندما كانت تتكلم مع هؤلاء الغرباء، كنت أعرف أن بمقدوري الصراخ أو الجري إليها وسيعرف هؤلاء الغرباء أني أهم لديها منهم عندئذ.

جاء وراح الكثير من أصدقاء أمي الحميمين. لم يكونوا يعنون شيئا لي، وكانوا يعنون القليل لأمي، لكن أحدهم أتت به إلى البيت وتردد عليه أكثر من أي واحد من الآخرين، ومكث أحيانا لأسابيع متواصلة. كان براين رجلا طويلا شاحبا له شعر أسود خشن قصير. بدت أمي مغرمة به للغاية. وهو بدوره كان يحب أمي بوضوح. لو كان الأمر سينتهي بالزواج كنت لأفضل كثيرا صديقها الذي كان لديها قبله؛ لأنه كان رسام كتب، وكان ليجلس بالساعات يعرض عليّ الصور واللوحات ورسوم الحيوانات، ويسألني أيها ينبغي أن يضمه الكتاب التالي. في كل مرة يأتي فيها كان يقدم لي الشيكولاتة ونوعا ما من المشروبات الروحية لأمي. كان أصغر

من أمي بأحد عشر عاما، له شعر أشقر وملابس أنيقة. بقلم رصاص في يده كنت أرهقه بطلباتي الفنية. كان يترجم ضفائري البنية الطويلة وملامحي الطفولية بخديّ الممتلئين إلى مخططات ورسومات كانت تحمل دائما موضوعا مرتبطا بساحرة شريرة ما. وكانت هناك بورتريهات لأخي ولأمي بأقلام فحم رقيقة وضعتها أمي في حقيبة سفرها أسفل الفراش. في علبة الأوراق المقدسة التي تضم شهادات ميلادنا وأوراق طلاقها وبطاقات بريدية من الأسرة ومجموعة هائلة من معايدات الكريسماس وأعياد الميلاد.

كانت فكرة زواج أمي من فنان حي يتنفس فكرة مثيرة للغاية، لكن لأسباب أتوقع أن تعرفها أمي الغامضة فقط، اختارت براين وليامز، عامل المناجم المحترف وصياد السمك الهاوي.

2

كنت في السابعة من عمري في المرة التالية التي رأيت فيها أبي. كنا نعيش في شارع يُدعى (لووير تيريس) في قرية اسمها (هندريفادوج). كان شارعا به نوع من التمييز؛ تناثرت على جانبه الأيسر عقارات البلدية وتدرجت على جانبه الأيمن البيوت الخاصة. عشنا في البيت رقم 54، على الجانب الأيسر. كل البيوت على جانبنا كانت متطابقة. جدران خارجية مكسوة بالحصى ومدهونة بألوان قبيحة برتقالية وبنية وبيضاء، ويحيط بكل بيت سياج من خشب أخضر متعفن، وله باب أمامي به زجاج مربع أشبه برسم بياني مموج على مستوى النظر. ثمة نهر بني قذر كان يندفع مارا بحديقتنا. ولو تتبعت دربنا المفروش بالحصى المتناثر إلى نهاية حديقتنا، فسيفصلك عن النهر فقط سياج من الحشائش التي نمت بإفراط. أغلب حياتي هناك ابتُليت بكوابيس قائمة على شخص ميت حي يخرج من النهر مفرود الذراعين مكسوا بالطحالب وينضح برائحة زفارة سمك كريهة، كأنه نوع ما من الأرواح الشريرة ينتحل شخصية المسيح.

كان براين قد حصل على لقب «بابا» قبل وقت طويل من

زواجه بأمي في مكتب تسجيل بونتيبريد، بعد شهور قليلة من انتقالنا إلى هندريفادوج. وكان جيمس مازال يشغل حجرة نوم خاصة في بيتنا، لكن رؤيته صارت نادرة. كنت أراه وقت الإفطار في أيام المدرسة، ولم تكن تلك باللحظات المحببة له أو لي. كان يصحو في مزاج شنيع لو كان عليه أن يصحو قبل العاشرة صباحا. كانت أعوام من الاستيقاظ مبكرا في الصباح والسهر إلى وقت متأخر في الليل قد تركت أثرها على طاقة ومزاج أخي. تدهن أمي الخبز المحمص بالزبد من أجلي، وتصب الشاي لنفسها، وتضع منفضة سجائر نظيفة على المائدة من أجل جيمس. كان المطبخ يوصف عادةً بأنه صغير حتى لكأنه ليس به مساحة كافية لتؤرجح قطة، وفي كل مرة يقف فيها أخي بقامته المديدة ذات الستة أقدام، تصطدم رأسه بالسقف بقوة كافية لتترك به فجوة. كنت مقتنعة أن يوما ما ستخترق رأسه هذا السقف وتظل هناك عالقة كدمية تصفيف الشعر بلا جسد، مجرد رأس، ملطخة بالكُحل على أرضية بسطة الدور العلوي. في كل مرة كان يطلق سبابا بصوت عال ويضغط بيديه اللتين تشبهان الجاروف على قمة رأسه وكأنه يحاول إيقاف الألم الهارب من أعلى. لو كانت عينا أمي ثابتتين بأمان على الخبز المحمص المحترق، كنت أبتسم له في صمت ابتسامة شامتة ويرد عليّ بإيماءة قذرة من إيماءات جوني روتن[4] قبل أن يصفق الباب خلفه.

4- الاسم المسرحي للمغني وكاتب الأغنيات والموسيقي الإنجليزي جون ليدون (1956).

أصبحت مهووسة على نحو غير صحي في لوير تيريس بالتنظيف. في سن السابعة لم يطلب إليّ أحد قط أن أغسل كوبا. غسلت متطوعة طقما كاملة من أواني العشاء ذات مرة، لكن جيمس شكا لاحقا أن كل طعامه كان له مذاق صابون (إمبريال ليذر). لم يكن لديّ اهتمام بالموضوع وكان كل العمل المنزلي شيئا اختُرع في الأصل من أجل الأمهات، لذا لن أعرف أبدا كيف نشأ بالضبط.

كل صباح كنت أخرج من البيت مسلحة بمجرفة وفرشاة تنظيف وأبدأ في كنس الحجارة من الطريق إلى الرصيف وألقي بها لاحقا في النهر، حيث كانت تغيب عن الأبصار تماما. وضعت طاقتي الضعيفة لكن الكاملة في مهمة جعل الطريق ناعما تماما. كان شعوري قويا بشدة تجاه الأمر حتى أني ذات مرة ألقيت حجرا على ولد لأنه ركل بعض الأحجار من مكانها. أغلقت عينيّ وصوبت، متوقعة أن أخطئ الهدف، لكني فتحت عيني بدلا من ذلك لأجد فيليب بيرنيل على الأرض، مغطى بالدماء.

في واحدة من حملاتي التنظيفية تلك يوم أحد أغبر قابلت أبي الطبيعي.

بعد أن أكملت النصف الأسفل من الشرفة، كان عليّ أن أنتظر عند الرصيف حتى تتوقف سيارة ما. كان هذا أمرا شائعا. توقفت المركبة الخضراء ذات العجلات المزعجة إلى جواري وبدأت في

التراجع نحو البوابة لأشاهد غريبا طويلا أسمر يسير نحوي. كان قد ناولني بالفعل دبا محشوا ورديا وحياني قبل أن أضيق عينيّ وأدرك أنه أبي. ذلك الرجل. جريت، أغلقت البوابة من ورائي وطرت إلى حجرة المعيشة حيث كان «بابا» يشاهد التليفزيون. تشبثت به والدموع تنسال من عينيّ. وتعاملت أمي مع الأمر.

يمكن لأربعة أعوام أن تجعل أي طفل ينسى الكثير. لم يأتني منه خطاب أو بطاقة كريسماس. وكان اسمه نادرا ما يُذكر، على الأقل في حضوري. ورغم أن أمي كانت أحيانا تطرح سؤالا غريبا يمر ببساطة من قبيل: «أنت لا تهتمين بأبيك، أليس كذلك يا ريبيكا؟» وكنت أجيب بطريقة آلية: «لا، بالطبع لا..» لأن هذا ما بدا وأنه يجعل أمي سعيدة ولم أفكر فيه قط بما يكفي لاتخاذ قرار حقيقي. «لا، أنت تحبين بابا، أليس كذلك؟ أنت فتاة صالحة.»

كان جسدي وقت الحادثة مليئا بالرعب من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. ربما لأني لم أكن أهتم بهذا الرجل، ربما لأني هُيئت للشعور بهذه الطريقة. ومع ذلك، هذا الغريب الذي تسبب في وجودي هنا كنت أنظر إليه بارتياع، وأبي الحقيقي الآن، صياد السمك الهاوي، كنت أعتبره مصدر الأمان. رفضت أن أتحدث إلى الشخص المخيف الذي سيطوي وجهه النسيان في الصباح التالي كما كان طوال الأعوام الأربعة الماضية. بعد ثلاثين دقيقة غادر البيت، وعادت الأمور إلى طبيعتها المريحة.

حيرني شيء ما في نفسي خلال تلك الأعوام من طفولتي الأولى، ألا وهو أن لا شيء كان يبدو طبيعيا فعلا. أنا لم أبدُ طبيعية كذلك. أخبرتني أمي أني كنت طفلة ذكية على نحو استثنائي، لكن هذا الشذوذ لم تكن له علاقة بالموهبة أو الذكاء؛ لأني كنت أعرف أن بمقدوري القراءة أكثر من بقية الأطفال، ورسم لوحات أجمل، وكنت قد بدأت في كتابة قصص عن رفض القسوة تجاه الحيوانات، وكان يحدث أحيانا أن أقول شيئا في الفصل لا يستطيع حتى المعلمون فهمه. حول هذه النقطة حكت لي أمي أنه ذات يوم عندما كنت أبلغ من العمر ثمانية عشر شهرا وأخي في العاشرة، نظر من النافذة وأبدى إعجابه بغروب الشمس، لكني ربت على كتفه، وأسندت وجهي إلى وجهه وقلت: «هذه ليست الشمس. هذه قنبلة صفراء كبيرة.»

وتبعت تلك العبارة في الشهور التالية قصة كاملة عن كيف أن اسمي ليس ريبيكا، بل روزماري، وأني لم أكن طفلة رضيعة، بل أني في الثامنة والثلاثين من عمري وأنتظر طفلا، وأن زوجي ديفيد ذهب بعيدا في الحرب العالمية الثانية، وأني أخشى من قنبلة قد تقتلني. أشعل هذا شكا جديدا حول نفسي. كيف يمكن لطفلة طبيعية تماما أن تأتي بأشياء كهذه وهي لم تتعلم الكلام منذ زمن طويل؟ وفي هذه النقطة أتذكر كلماتي الأولى. لم تكن كلمات بقدر ما كان كلاما. فبما أن «ماما» أو «بابا» كانتا مجرد كلمتين طبيعيتين أكثر من اللازم بالنسبة لي، كان عليّ أن أذهب

وأتلو أغنية الأطفال «Little Piggy" كاملة. هكذا كنت أستلقي في مهدي متحدثة عن الأسواق ولحم البقر المشوي، قبل أن أعرف اسم أمي. سمعت أمي تحكي لجارة ذات مرة أنه في المرة الأولى التي جاءت إخصائية اجتماعية لترى إن كنت أنمو بشكل صحي، كنت في حوض استحمام أطفال أمام الموقد. وعندما سألت أمي إن كنت أكمل جملا مقبولة، خرجت من الحوض، وسرت إلى المرأة، وأشرت إلى النافذة وقلت: "انظري هناك في الخارج، إنها تبول.»

وصفت أمي هذه الأحداث باعتبارها أشياء رائعة، بينما بدأت أبتلي نفسي بمخاوف حول من أكون. كانت هناك احتمالات كثيرة، لكن «الطبيعية» لم تكن إحداها. بدأت مثل هذه الأفكار تضفي نغمة من العزلة على حياتي. بالطبع لم يكن هذا الأمر وحده؛ كان لإحساسي بعدم الأمان أن يجمع عددا أكبر بكثير من أيادي العون على طول الطريق، لكني أعرف أن هذا ما بدأ بدحرجة الكرة، تلك الصخرة التي ستجعلني في النهاية عاجزة تماما.

كل متعلقاتي ولعبي وملابسي والأشياء التي فقدت الاهتمام بها أو كبرت عليها أو رفضت ارتداءها، انتهى بها الأمر غالبا عند ريتشيل جونز في الناحية المقابلة من الطريق. كنت أستمتع برؤية ريتشيل في ملابسي. فكرت في الأمر كنوع من عملية ترابط قربتنا أكثر كصديقتين. وكثيرا ما كنت أشير إلى فستان أو

طقم من سترة وبنطال بدا أفضل عليها. ولم أدرك قط أن كلماتي ربما سببت ضررا أكثر مما ساعدت. بشكل طبيعي، كنت أعتقد أني وأمي كريمتان، لكن لا بد أن أسرة ريتشيل تساءلت كيف أمكننا التبذير بمثل هذه المقتنيات بينما كنا نعيش على الجانب الفقير. أذكر زوجا من الأحذية جيء به من مكان ما، لم أعرف قط من أين بالضبط؛ لأني لا أذكر أنه كان لي أبدا. كل ما عرفته أنهما شيئان كبيران سوداوان ثقيلان لن تحبهما ريتشيل أيضا. ومع ذلك، تم سحبي إلى بيت ريتشيل حاملة الحذاء، لأشعر بالذنب لكوني طفلة ناكرة للجميل.

في الصباح التالي لم أشعر بالصدمة أو الذهول عندما انفجرت ريتشيل في البكاء بدموع الحرج من زوج الأحذية القبيح في قدميها. رفضت الذهاب إلى المدرسة. كنا نعرف أين يختبئ أولاد المدارس الثانوية الشاملة وأين يمكننا الاختباء، لكني لن أعرف أبدا لماذا قررت ألا أذهب إلى المدرسة ذلك الصباح. كنت أشفق على ريتشيل وأعرف أني كنت لأرتدي هذا الحذاء إن لم أكن ناكرة للجميل هكذا. نسينا من جاءته الفكرة أولا، واختبأنا داخل القنطرة (وهو نفق كان النهر يجري عبره) حتى الظهر. دفعنا الخوف أو الجوع (أو مزيج منهما) إلى الخروج لنجد زوجين من الآباء يفتشون النهر.

بعد عام 1985 تجاوزت بعض مناطق (وديان رونذا[5]) معدلات البطالة بخمسة وستين في المائة، وفي كل مكان في ويلز كانت العمالة في أقل معدلاتها منذ أكثر من نصف قرن. ورغم أن اختفاء كل المناجم العاملة سيكون نهائيا عما قريب، إلا أن الإغلاق الفعلي لمناجم الفحم لم يعد موضوعا مطروحا تقريبا: فقد أُغلق أغلبها منذ زمن طويل، وكانت الزيادة في إعانات البطالة الحكومية ، أو تخفيضها، هي الموضوع المعتاد في المحادثات. منجم واحد كبير هو فقط الذي ظل مفتوحا. ولحسن الحظ كان بابا، عامل المناجم المحترف، يعمل هناك. وكانت لدى أمي وظيفة نادلة بعد الظهر وأحيانا مساءً في الحانة الواقعة في أعلى الطريق. فيما بعد ستعمل في تنظيف (مكتبة تروركي) وسأبدأ في قراءة الكتب على مدار الساعة. كان الدخل جيدا. كان كل جانب من حياتنا العائلية جيدا وسعيدا. أم، أب، أخ كبير، قطتان، كلب... وسمكة ذهبية.

مكَّن الدخل غير المتوقع والديّ من وضع رهن عقاري على بيت أبعد قليلا في القرية، ليجعلا إقامتنا في لووير تيريس قصيرة بعض الشيء.

في منتصف الشتاء قمت بزيارتي الأولى لبيتنا الجديد

5- رونذا أو وادي رونذا كانت منطقة لمناجم الفحم في جنوب ويلز وهي الآن مقاطعة حكومية محلية تتكون من 16 مجتمعا محليا حول نهر رونذا.

المرتقب. جلسنا على أقفاص في الردهة بينما كان مصباح زيتي يشتعل بالضوء. كانت أمي تدخن لكن بخار أنفاسي كان مرئيا كذلك. فاح البيت برائحة رطوبة، وهي رائحة أحبها بشكل خاص ويا للغرابة، لكن هذه الرائحة كانت مختلفة. لم تكن تفوح بالرطوبة فقط، بل بالقذارة. أحاطت الرائحة الكريهة بالبيت وكأن الجدران مصنوعة من ملاءات مبللة. لم أكن قد دخلت بيتا خاليا من قبل، ولعل كل بيت خالٍ في ويلز كان يمكن أن يفوح برائحة أسوأ، لكن شيئا ما لم يكن بالقطع صحيحا.

المالكان السابقان (بعد طلاقهما) لم يتركا شيئا أكثر من أريكة جلدية طراز الستينيات وبضعة كتالوجات صيفية. سرنا فوق الخرسانة وورق الحائط الذي تمزق ليكشف عن جص اسودَّ وتكسَّر جزئيا. كان بيتا كبيرا عليه سيماء العجز. لم يكن هناك أي حضور لقوى خارقة للطبيعة، مجرد سمة تتخلل الجدران كأنها في عروقها، ورعشة برد بدا مقدرا لها أن تدوم أطول من موسم سقوط الثلج.

ومع ذلك، فقد جرى نقل سجاجيدنا البُنية، وستائرنا البُنية، ومائدة القهوة التي كان جيمس قد صنعها في المدرسة، وملاءات سرير أمي الصفراء، وبيت دميتي باربي ذي الطوابق الثلاثة، وكل أثاثنا الباقي ليكون في خدمتنا في بيتي الثالث.

3

في الساحة الخلفية لبيتنا انتصب كوخان متجاوران. أحدهما كان كوخ معدات صيد السمك الخاصة ببابا، والثاني كان كوخ لعبي. مزودا بخزانات وأدراج ومكاتب خشبية مدهونة باللون الأبيض، كان كوخي هو أكبر وأكثر «بيت لعب» مقاوم للريح في الوجود. صنعت أمي ستائر جميلة من الشباك للنوافذ، وملأ كلا من ماما وبابا خزائني بالألعاب والعرائس والكتب. كانت الكتب هي المفضلة لديّ؛ وقعت في حب الأدب. لو لاحت الفرصة كي أذهب إلى العمل مع أمي في بداية المساء، كنت أنتهزها بسرعة. واحدة من أعز ذكريات طفولتي هو بقائي وحدي مغلقا عليّ داخل (مكتبة تروركي العامة). بالطبع كانت أمي تنفض التراب أو تشفطه بالمكنسة الكهربية في ركن ما، لكن المبنى كان كبيرا جدا وكان احتمال تقاطع طرقنا به ضعيفا جدا، وفقط عندما كانت تنادي اسمي عشرين مرة كنت أعود محبطة إلى الباب الخلفي لأغادر معها. لو هددتني بأن تتركني هناك، كنت لأغدو في غاية السعادة بالنوم على الدكك الجلدية مع (أوليفر

تويست) أو (هكلبري فِنّ)، غير أنها لم تهدد قط، بل كانت تصر على المغادرة. كانت المكتبة، دون شك وعلى بلاطة، هي مكاني المفضل في العالم الواسع كله.

بدا أن الأدب وغيره القليل هو ما يثير انتباهي. أصبح جراهام جارنا استثناء لأني كنت متأكدة أنه كان من الممكن أن يصبح رواية بطريقته. قيل لي إنه «غريب الأطوار»، وكان هذا بالطبع موضوعا قريبا من قلبي، وراقبته بحرص. لا بد أنه كان في الخمسين من عمره، ربما في الستين، وجسده أشبه بجسد ملاك شاروبيم ناضج، بكرش كبير مستدير وخصلات شعر صفراء دبقة، استحالت إلى اللون الرمادي. كثيرا ما كانت تجري مشاهد تستحق الرؤية في الحديقة حيث كان يظهر في السادسة كل مساء ليعتني بحمَّامه الخارجي. كان يرتدي لباسا داخليا متلألئ البياض وصديريا مفرط الحجم وتتبعه دائما برنسيس، كلبته ذات الصوت الحاد العالي من فصيلة (كورجي). كان يذهب إلى الكنيسة مرة يوم الأربعاء ومرتين يوم الأحد، في رفقة صديقه جورج الذي كان يأتي ليصطحبه في سيارة حمراء لامعة. كان يتحدث بفصاحة، وأحيانا بينما أقرأ في المطبخ كان بمقدوري سماعه يغني ترانيم بطريقة بديعة في مرحاضه الخارجي. وكثيرا ما وجدت نفسي أدفع وجهي ليلتصق بزجاج نافذته الأمامية؛ لكن هذا كان بلا أي فائدة قط: فالمنظر مخفي دائما بزهور نضرة من كافة الألوان والأشكال والأحجام، وأباجورة

وردية ضخمة. قال بابا إنه كان يطلب اقتحام المكان، بعرضه لهذه الأشياء الباهظة في نافذته، لكني لم أفهم قط لماذا قد يريد أي شخص أن يسرق الزهور بينما بمقدوره فقط أن يمضي دون مشقة ويقطف بعضها.

أتذكر أني دُعيت للدخول إلى هناك ذات مرة. نسيت المناسبة، لكني كنت مع أمي. ولدهشتي وجدت نفسي في شرفة جراهام الأمامية. وسرعان ما وجدت من المنطقي أنه استأجر مايكل أنجلو ذات مرة ليزين مدخل بيته.

لم أعرف قط إن كنت قد انجذبت إلى جراهام لأني كنت أتساءل بيني وبين نفسي إن كنت غريبة مثله، لكن بمجرد أن أرضيت فضولي تجاه الرجل، لم يعد غريبا على الإطلاق. كان شخصا غير مؤذٍ، سعيدا، غريب الأطوار قليلا، اعتاد أن يرسل إليَّ بطاقات تهنئة بعيد ميلادي موقعة من «جراهام وبرنسيس». جاءت بطاقتي الأخيرة في عيد ميلادي الثالث عشر، وعلى الواجهة طُبعت جملة «أنت مراهقة أخيرا» أو كلمات بهذا المعنى. تحيرت دائما متسائلة كيف عرف عنواني بعد الانتقال. بعد ذلك بثلاثة أشهر ظهر اسمه في عمود الوفيات بجريدة (رونذا ليدر).

خارج كوخي في بقعة من الأرض، بدأت مقبرة في الظهور. كل الحشرات الميتة التي كنت أجدها في الحديقة وضعتها داخل علب مجوهرات من سلسلة محلات هـ. صامويل كانت تضم

فيما مضى هدايا من أقراط وقلادات لأمي. كنت أمنحها أسماء وأحفر لها قبورا. لم أكن أبحث كثيرا عن الفراشات الميتة بقدر ما كنت أقتل تلك التي في تمام صحتها وأعتذر لها بصنع صلبان خشبية لغرسها في التراب فوقها. وكثيرا ما كنت أنبشها مرة أخرى لأتفحص أي تغير أو حركة. لم تتحرك بقع الموت الملونة ولم تتغير، وأحبطني ذلك أحيانا؛ رغم أني وصلت إلى توقع عدم حدوث أي تقدم. منذ سن مبكرة جدا وجدت في نفسي اهتماما حادا بالموت. كنت أعرف القليل جدا عن الموضوع، والحادثتان الوحيدتان اللتان قاربتا خبرتي تضمنت كلتاهما سمكة ذهبية أليفة. كان حيواني الأليف الأول (باستثناء بيلاً التي كانت معي منذ زمن بعيد بقدر ما يمكنني التذكر) سمكة ذكر اسمه (فلاور). وجدته ذات يوم في منفضة سجائر، نصف مخفي برماد سجائر أخي وأصدقائه. تفحصته لفترة قبل أن يدخل أخي متثاقلا وهو يصيح: «جيمس، قلت لك أن تلقي به في المرحاض وتجذب السيفون.» بلغ أساي درجة أعلى قليلا من الارتباك وأنا أسأل: «لماذا لا يعمل فلاور؟» وكان حيواني الأليف الثاني (جوز) بديل فلاور. مات تقريبا في (لووير تيريس) عندما ملأ أبي بالخطأ حوضه بماء من الغلاية. ظهرت أمي من وراء ركن ما، ووضعته تحت الماء البارد، ووضعت رأسه في فمها، وضغطت ردفيها معا، وصنعت تفريغا هوائيا في مكان ما داخل جسدها ونفخته في جوز. عاش، وعندما أخبرتني أنها منحته قبلة الحياة، بدأت أعتقد

أن بمقدورها إعادة كل شيء إلى الحياة بنفخة أكسجين سحرية لا يملكها أحد غيرها.

وجدت نفسي منجذبة إلى أماكن الدفن. أخبرتني أمي أن مقبرتي توجد في أورشليم، واستغرق الأمر مني وقتا طويلا لأكتشف أني سميت على اسم ريبيكا[6] من الكتاب المقدس، بعد أن اعتقدت لبعض الوقت أن قبري قد نُبش بالفعل. قيل لي أن افتتاني بالمقابر شذوذ مرضي، وهو ما زاد بوضوح من شعوري بالغرابة. لم يكن لديّ قاموس المفردات الكافي لفهم أن المقابر دور تقاعد آمنة لهؤلاء الذين رحلوا وأن شواهد القبور تذكارات للحب. ولأني كنت مفتونة دائما بالكلمات، وجدت نقوش شواهد القبور جذابة بشكل كبير. كيف تختزل حياة شخص في جملتين تتمنيان الخير له؟ كيف يمكن للمرء أن يبجل مكانا سيشغله المرء حتما؟

أدهشني كيف تتلاشى دوائر الأصدقاء وتنمو وفقا لأي اتجاه تسير فيه إلى البيت من المدرسة. نأت ريتشيل لتغدو شخصا كان هاما ذات يوم وصار منسيا الآن، وبدا أن لويز كانت تنتظر لتصادقني من قبل أن أولد. كانت أسرة لويز تحيرني. مثل كل شيء آخر، كانوا مختلفين عن أسرتي. كان لديها أختان أصغر سنا ولهما اسمان مضحكان، وليس لها إخوة. أخبرتني أمي أن حلم

6- ريبيكا أو رفقة في الكتاب المقدس كانت زوجة إسحق وأم يعقوب وعيسو.

كل أم أن يكون لديها بنات وأولاد، لكن بعض النساء لا يستطعن أن يلدن غير البنات. افترضت أوتوماتيكيا أن النساء اللاتي لديهن طفلان من نفس الجنس لم يستطعن تحقيق حلمهن وكوَّنت رابطة تعاطف غير مرئية مع أم لويز قبل أن ألتقيها بوقت طويل. كان والد لويز، روبرت، فلاحا أو ربما عامل غابات. (أتذكره مرتديا حذاء بلاستيكيا يصل إلى الركبة، وبنطالا أخضر من القيطان[7]، وكنزة صوفية ناحلة، ومعطفا من المشمع وبيريه، أينما ذهب). لم يكن بيتهم مكدسا بأشياء جمعتها أمها طوال اثنين وأربعين عاما، وثمانية عشر بيتا، وزيجتين، مثلما كان بيتنا. في الحقيقة كان عاريا إلا من تليفزيون وأريكة، أقرب إلى بيت زوجين حديثي الزواج وليس لديهما أطفال. وكان متوقعا من لويز أن تساعد في التنظيف والطهو وغسل الأطباق، وهو الأمر الذي وجدته غريبا على نحو خاص. كانوا يأكلون قليلا جدا في أوقات الوجبات، قليل جدا حتى أنك لتظن أن الطعام يجري توزيعه في حصص محددة.

كان يجري التعامل مع كل شيء بطريقة منظمة. وكانت الصباحات تسير وفق لائحة مناوبة. تهبط البنات إلى الدور الأرضي في مناماتهن ويأكلن حبوب القمح مع أمهن. وإذا أكلنها كلها، يمكنهن أكل الخبز المحمص أيضا. ثم يغتسلن، ويلبسن

7- القيطان نسيج من الحرير أَو القطن أَو غيرهما يُبرَمُ فيكون كالحبل الدقيق.

ثيابهن، ويغسلن أسنانهن، ثم المدرسة، ثم الخروج للعب، ثم خبز كعكة، وكنس الحجرة العارية بالمكنسة الكهربائية، ممنوع مشاهدة التليفزيون في الشمس وممنوع قطف التوت في المطر.

لم أكن غريبة فقط إلى حد كوني أشبه بكائن فضائي يواجه مجتمعا بشريا، بل كنت أدنى منزلة كذلك. كانت أسرة لويز أول صدمة عملية للنظام النظري. كنت أحظى دائما بطعام جيد، وملابس جيدة، وبيت جيد، ثم أُترك لأكتشف ألغاز الموت والدين وشكسبير وحدي. لا نظام، ولا ملابس أعلقها، أول ما أشربه في الصباح: الكوكا كولا، وآخر ما آكله في الليل: الجبن.

لم أشك قط في أن والدة لويز أم جيدة جدا، لكن أمي كانت أفضل. كثيرا ما حدث وأنا جالسة على فراش لويز، أن أخرجت لويز رزمة فوط صحية من خزانة ثيابها وتأففت: «دائما ما تضع هذه الأشياء هنا، وأنا لا أحتاجها..» وأعادتها إلى حجرة نوم والديها. من يترك بعض الأشياء الصحية الأنثوية في حجرة ابنته، قبل ثلاث سنوات من وقتها دون كلمة توضيح؟ أذكر يقيني أن «أمي لم تكن لتفعل هذا قط».

كانت لويز تذهب إلى الكنيسة مع أختيها. بدا هذا بالنسبة لي نقطة نظام أخرى في حياتهن. نوع ما من المدرسة في عطلة نهاية الأسبوع، بحيث يستطعن بعدها العودة إلى البيت، وخبز كعكة، وكنس الحجرة العارية الضخمة بالمكنسة الكهربائية في

أيام عطلاتهن كذلك. كثيرا ما طُلب مني الذهاب لكن الدين الوحيد الذي اتبعته كان قول من فضلك وأشكرك عندما تدعو جدتي (شهود يهوه) إلى تناول الشاي.

في أيام الآحاد أقرأ، ولم يتطلب الأمر الكثير من القراءة لمعرفة أن كل الأشخاص المهمين يذهبون إلى الكنيسة. مادونَّا كاثوليكية. (تحول ذوقي في الأدب تدريجيا إلى «جاست سيفنتين» و«سماش هيتس»[8]).

بعد أسابيع قليلة كنت عضوة في كورال الكنيسة. جنيه مقابل أيام الآحاد وجنيهان في حفلات الزفاف. كانت عملية مقايضة بسيطة، لكن وفق أي عبارات مسيحية كنت أغش الكنيسة (حيث أقدم خدماتي لأني أردت أن أكون نجمة بوب)، وكانت الكنيسة تغش نفسها (حيث تشتري خدمات من فتيات صغيرات لا يردن شيئا يتعلق بالرب، بل أن يظهرن في المجلات مرتديات بلوزات رخيصة ذات شريط يحيط بالرقبة). لم تكن هناك أي إثارة في الجلوس في البرد القارس، على مقاعد خشبية مشققة؛ ومع ذلك ظن أحدهم أن بإمكاني الغناء! أقرب شعور روحي وصلت إليه كان عندما غمز لي عريس على وشك الزواج في منتصف طقس

8- مجلة Just Seventeen كانت موجهة للفتيات المراهقات وصدرت في الفترة من 1983 إلى 2004. أما Smash Hits فكانت مجلة موسيقية بريطانية تستهدف الشباب وصدرت في الفترة من 1978 إلى 2006 ثم تحول الاسم إلى علامة تجارية لقناة تليفزيونية وموقع إليكتروني.

زفاف جاد.

ذات يوم، ترك أحدهم الباب الخلفي مفتوحا على اتساعه. خبَّت بيلاً خارجة من البيت لتقابل كلبا شابا وسيما من فصيلة الراعي الألماني. استطاعت أن ترى من طوقه أن اسمه كان بِن، وكان قد راقبها من بعيد لبعض الوقت، وعندما رأى الباب مفتوحا اليوم، لم يستطع أن يفوّت فرصة لقاء الكلبة الجميلة في ابتهاج شخصي تام. دعاها إلى بيته الصغير المسقوف في ضواحي كاليفورنيا. نظرت بيلاّ مرة ومرتين إلى كوخي، منتظرة كي تقول وداعا، لكن الفرصة كانت أكثر إلحاحا من أن تنتظر عودتي من بيت لويز أو من الكنيسة، وسرعان ما رافقت بن في خببهما خارجين من شارع هندريفادوج الجاف إلى الطريق المؤدي بهما بعيدا، بعيدا.

في منتصف الليل وصلت إلى البيت قادمة من الجبل مع أمي لنقابل أخي وأبي في البيت. لم ير أحد منهما أيا من الكلبين الإلزاسيين. لم يوجه أحد إليّ أصابع الاتهام بطريقة مباشرة، لكني عرفت أنه بينما كنت خارج الحجرة، كان اللوم يقع على رأسي. قضيت الليلة متكومة أمام الفرن فوق الشعرات التي تركتها بيلاً خلفها. كنت بردانة، وقالت أمي إن بيلا ستكون بردانة كذلك. استحضرتُ أغلب الأحداث في القصص الخيالية لأبسط تعقيدات الحياة، لكني كنت أعيش بشكل واقعي كاف لمعرفة أن ذكر

كاليفورنيا آنذاك يمكن أن يقتلني.

لم يذهب أحد إلى العمل، ولم يذهب أحد إلى المدرسة أو الكنيسة، أو يتناول وجبة، أو يستحم، حتى يتم العثور على تلك الكلبة. ومن الطبيعي أن أحدا لم يعثر عليها طوال الأسبوع الأول.

المكالمات الهاتفية، والملصقات، والإعلانات، وعمليات البحث الطويلة التي دامت طوال اليوم وعرضت الصحة للخطر.. كانت بلا جدوى.

وتدريجيا بدأ من جديد استخراج الفحم، والتنظيف، والسمكرة، والشِّعر؛ لكن تحت ظل من السوداوية يغطي كل لحظة وكل وجه. تحرك كل شيء بسرعة السلحفاة وبشكل لم أره من قبل قط.

بعد كل مكالمة هاتفية يجري تلقيها كنت أنتظر عند الباب عودة أمي، التي تهز رأسها مرهقة وتشق طريقها إلى المطبخ لتدخن سيجارة. كان بمقدور كلمة واحدة أن تهز صمت الشهرين الذي جمد البيت بأكمله.

كانت بيلا أصغر مني بعامين. لم أكن قد عرفت الحياة بدون الكلبة، ولو قال أحدهم: «أفهم، هي مثل جزء من الأسرة» مرة أخرى فمن المؤكد أن يكون ضحية لقبضتيّ المضمومتين القاتلتين. أصبحت أفهم الإهانات غير المباشرة، فقط وأنا لست

إلا أصغرهم.

لم يغدو من اللائق فتح التليفزيون إلا بعد شهر آخر، لكن قراءة كتاب كانت مازالت بمثابة صفاقة. ليس هناك شيء بإمكانه تعطيل كل شيء تود أن تفعله كخسارة لا تُعوض، وبالفعل، ثمة تعطيل مفروض على كل شيء اتخذته وتود الاستفادة منه.

كان يوم أحد وكانت الحياة العادية قد استعادت مجراها. بابا يصطاد السمك وجيمس في بيت صديقته. كانت ماما تجفف الأطباق إلى أن سمعت الطرقة على الباب. وعندما ألقت المنشفة ومرت بي في طريقها، أعتقد أني رأيت أول نصف ابتسامة لأمي منذ أربعة شهور كاملة. قبل أن تمر خمس دقائق على خروجها من الحجرة وقبل أن أنتقل إلى الكوخ، جرت بيلا عبر البيت بعواء طويل قوي. ألقيت بذراعيّ حول عنقها، وبكيت كل دمعة وددت أن أذرفها في الشهور الماضية.

ثمة ملاك عرف أننا عانينا بما يكفي وأعاد بيلاً، مخبرا بن أن يمضي ويعرض بيته المدهش على كلبة هجين غير مرغوبة.

4

نظرت في المرآة وقررت أني فتاة قبيحة. عيناي ذابلتان وكبيرتان جدا، وعظامي ملفوفة ببشرة زرقاء ناحلة تحتاج اثنين وأربعين أسبوعا من التعرض للشمس فقط كي تتحول إلى اللون الوردي، شعري طويل ومتشابك وله لون الزنجبيل، ووجهي بأكمله مغطى بالبقع والنمش. بالنظر إلى لويز، وبمقارنة مظهرينا في الشتاء أو في الصحو، كنت الطرف المعيب.

عشر سنوات من قول أمي: «إنه ليس بلون الزنجبيل، إنه بُني ذهبي جميل..» لا تقارَن بثلاث سنوات من قول تلاميذ الفصل: «إنه ليس ذهبيا، إنه بلون الزنجبيل».

"النمش علامة الجمال" لا تقارَن بالعبارة الواضحة والبسيطة: "نمشاء الوجه" و"أنت نحيلة مثل أمك" لا تقارَن بـ "ريبيكا عود الخِلَّة".

صحيح كانت أمي نحيلة، لكنها كانت جميلة، برأس يكسوه شعر أشقر مائل للرمادي. (لم أعرف قط أنها كانت تصبغه حتى بدأت أنغمس في عجائب كيمياء الجمال بعد أربع سنوات). كان لديها ما يسمونه أنف آل "باول" شيء صغير مستقيم استقر

بعناية في منتصف وجهها الوردي. كل ملمح لأمي كان مثاليا باستثناء مجموعة من خيوط العروق التي استبقتها في كل وجنة من وجنتيها. لو نظرتُ لوقت أطول من اللازم أو بشكل مدقق أكثر من اللازم إلى هذا الملمح المحبط، كنت أجبر نفسي على النظر بعيدا بحدة، حتى لا أفسد الصورة المثالية التي أحملها لها، وبأنانية حتى لا أذكر نفسي أن هذا هو ما أصبحت عليه، وكأن هذا ما ينقص وجهي الذي غدا بالفعل أشبه بقطع (بازل) بيضاء وزنجبيلية.

من أين جاء الزنجبيل؟ هذا ما أردت أن أعرف. لم أستطع أن أسأل أمي، فستقول: «ذهبي وليس زنجبيلي.» سألت أخي إن كان أبي بلون الزنجبيل رغم أني لم أكن أعتقد أنه كذلك، لأن جيمس لم يكن كذلك. فقال: «بشارب زنجبيلي.» لذا ربما لم أكن متبناة، لكنني لم أكن جميلة أيضا.

عرفت ذات مرة أن أفضل الفتيات في العالم لم يكنّ جميلات، لكن في عالم موسيقى البوب الفوار دائم الحركة لم يكن من الممكن مقارنة جين أير و»ماجي» بطلة جورج إليوت[9] بجانيت جاكسون وكايلي مينوج. كنت قبيحة ولا أحد أو لا شيء يمكن أن يغير هذا.

9- الإشارة إلى ماجي توليفر بطلة رواية (الطاحونة القائمة على نهر فلوسّ) للكاتبة جورج إليوت والتي نُشرت لأول مرة عام 1860 في ثلاثة مجلدات.

وعندئذ فُصل بابا من العمل. تغيبت ذلك اليوم عن المدرسة لأخرج مع أمي وأبي. ذهبنا إلى فندق (ليون) في تروركي وجلسنا أسفل لوحة حملت شعار «على الجليد الهش[10]". كانت مقولة بابا المفضلة لو تصرفت بوقاحة. "أنت تسيرين على جليد هش يا بنت." فهمت معناها لكن كان لديّ ميل للتظاهر بأني لم أفهمها. كنت أؤمن أني إذا ضحكت في وجه الخطر فلن يكون خطيرا على الإطلاق. أكلنا أنا وأمي لحم الخنزير، بينما أكل بابا شريحة من اللحم البقري. شربت كوكا كولا بعد ذلك ورشفت أمي فودكا. لم أفهم جيدا لماذا كنا نحتفل بفقد الناس لوظائفهم من آخر منجم في جنوب ويلز. "نحن لا نحتفل." قال بابا. "فقط نستمتع بآخر ما يمكننا الاستمتاع به." كانت رزم النقود التي تحسسناها ذلك الصباح بعيون متسعة وبعد ذلك ألقيناها حولنا في المطبخ هي السبب في احتفالنا. قال بابا إنها كانت تذكرته لحياة الفراغ والترفيه. قال إنه سيتمكن من الذهاب إلى رصيف مومبلز البحري بسنارة صيده، كل يوم. لكن الأمر لم يسر على هذا النحو.

بدلا من الصيد، بدأ أبي يذهب وراء أمي إلى العمل. في الصباحات كانت قطع الصخور والمعادن القديمة التي استقرت في (مكتبة المَراجع) تجد طريقها إلى جيوب بابا وينتهي بها الأمر على منضدة زينتي. رفضت العودة من المدرسة إلى بيت

10- يشير هذا التعبير إلى كون المرء في مشكلة أو يقوم بمخاطرة مثل من يسير على جليد هش.

خالٍ وبدلا من ذلك انضممت إلى أسرتي في فندق (دير). أمي وراء البار وأبي على الجانب الآخر، وأنا ألعب البلياردو وأشرب الكوكا كولا وآكل الجبن ورقائق البصل بينما ينتظر الآخرون حتى تستوي رقائق البطاطس وهم يشاهدون مسلسل (الجيران)[11]. خلال شهرين صرت بطلة البلياردو في الحانة. وأمتعت جمهورا من الذكور البالغين بقصص ورسومات كاريكاتيرية بالطباشير على لوحة النتائج. وكان لديّ كل مجتمع العاطلين أو المتسكعين في هندريفادوج ليساعدوني في أداء واجباتي المدرسية. تحولت مواعيد شرب الشاي إلى أمسيات وتحولت الأمسيات إلى ليالٍ. ومضت أمي إلى الناحية الأخرى من البار لتنفق مكتسباتها.

تغيرت الأمور تدريجيا. وما بدأ كمجموعة غير ضارة من النوادر ومسألة استهلاك تافهة كانت تتطلب الانتباه أصبحت ببساطة شيئا أكثر شؤما بكثير. لعله كان يوم عيد ميلاد أبي عندما أدركت أن كل شيء يسير على نحو أثقل مما كنت أتصور. وصل التاكسي الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر، لكن بابا رفض الركوب.

"لن أركب، إلى أين ستأخذونني؟ لن أذهب."

11- مسلسل الجيران (Neighbours) مسلسل تم إنتاجه في أستراليا. بدأ عرضه في سنة 1985 وبلغ عدد مواسم المسلسل 30 موسما، كما بلغ عدد حلقاته 6880 حلقة، وتبلغ مدة الحلقة الواحدة 22 دقيقة.

"سنأخذك إلى البيت، لخاطر المسيح!"

ترنح في الساحة وكأنه يحمل مائتي كيلوجرام على ظهره، قبل أن يسقط إلى جوار الحائط. تكور حول نفسه وكأنه يتهيأ للنوم. خرج ثلاثة رجال من الحانة وحملوه إلى السيارة، وبعد ذلك إلى داخل البيت. بعد ثلاث ساعات كان في الخارج يتشبث بقضبان المصلى الكنسي في الشارع ويصرخ: «أخرجوني، أخرجوني.» وكانت أمي في النافذة تلقي جوائز الصيد واحدة بعد الأخرى إلى الأرض. ورغم أني في البداية كنت أضحك على تصرفاته الثملة وأصبحت قلقة قليلا فقط عندما استمرت لوقت أطول من اللازم؛ إلا أن الأمر بدا وكأنه مقدر له أن يحدث. ربما لم أكن متأكدة أبدا حتى هذه اللحظة أن والديّ كلاهما مدمنان للكحول، لكن لا بد وأن كانت هناك بضع إشارات لا تُنسى إلى مقصدهما، لأنه رغم كل الشخير المقرف على الأريكة ورائحة الفودكا الرهيبة التي كانت ترشح عبر الدور الأرضي، إلا أن الأمر بدا وكأنه أكثر الأشياء طيبعية في العالم.

في محاولة يائسة لإنكار معرفتي بشيء عرفت الكثير عنه، التقطت لوح تزلجي وتزلجت بعيدا بعيدا عن البيت والحانة وعثرت على مكان اسمه (ريلواي تيريس). ولأن ريلواي تيريس كان شارعا معزولا منفصلا عن بقية هندريفادوج من ناحية بالاصطبلات ومن ناحية أخرى بطريق منحدر متعرج، لم يكن

الأطفال يشغلون بالهم بالعثور على أصدقاء من سنهم وكان الكل يلعبون معا. راوندرز[12] على تقاطع الطرق الذي نادرا ما يُستخدم، سباحة في السد على الجانب الأعلى من القنطرة، وركوب دراجات بامتداد خط السكة الحديد القديم. في الأمسيات كانوا يجلسون على سطح الجراجات يلقون الحجارة في الهواء ويشاهدون العالم وهو يسير بالحركة البطيئة. كنا أنا وإيكي آخر من يرحل، وفي حالتي كان هذا هو الأأمن، وعندما كنت أتأكد أنها أظلمت تماما كنت أقفز وسط نباتات القراص وألتقط لوح تزلجي وأتخذ الطريق الأطول إلى البيت. ربما كانت والدة إيكي مدمنة على الكحول. وكان إخوته يديرون تجارة للسيارات المسروقة ويشتمون كثيرا. وكان والد جيما وليزا قد مات قبل عام، أما تيلي فكان لديها مجموعة كاملة من السراويل التحتية المبقعة بالدم على سطح بيتها. بشكل عام، كانوا النوع المناسب لي من الأشخاص. لم يمر وقت طويل عليّ كعضوة في (عصابة ريلواي) قبل أن نبدأ في أن نجد المتعة في لعبة «اطرقي الباب يا جينجر»[13]. كان ريج في شارع باريت يمنحنا دائما مطاردة جيدة، والمطاردة الجيدة هي كل ما في اللعبة. كنا قد قررنا أن نشاكس الآخرين فقط بعد أن استنفدنا كل المتعة لدى بعضنا

12- لعبة بالكرة والمضرب تشبه البيسبول.

13- لعبة مشهورة في إنجلترا منذ القرن التاسع عشر ويلعبها الأطفال في بلاد أخرى كثيرة حيث يطرقون على الباب أو يدقون الجرس ويهربون قبل أن يفتح الضحية الباب.

البعض. ما لم يدركه ريج أنه في كل مرة كان يلتقط فيها عكازه وينطلق بصعوبة خلفنا في الشارع وهو يصيح: «أنتم أيها الأوغاد الصغار، سأقتلكم!» وخلفه كلبه الجاك راسل الغبي؛ كان يقدم مساهمة كبيرة في بهجتنا الطفولية. وعندما ساء حال ساقيه أكثر من اللازم واكتفى بفتح الباب ليصيح: «سأشعل النار في خشب ألعابكم النارية الليلة!» (وهو ما اعتقدنا أنه شيء شرير صريح) لم يعد بمقدورنا أن نشغل بالنا بأمره بعد ذلك.

كانت ليلة الألعاب النارية[14] تقترب وكنا طوال الخريف نجمع الخشب والجرائد والمناضد والمقاعد والأقفاص وأي شيء آخر قابل للاشتعال؛ ونخزنه في جراج. وعندما جاء اليوم، وكان يوم أربعاء، تغيبنا جميعا عن المدرسة لنستعد. صنعت كل الأمهات طعاما. كنت قد حاولت أن أبقي على علاقة ضعيفة بوالديّ، لكني ظننت أني لو طلبت منهما فقط أن يصنعا بعض البرجر ويُظهرا بعض الرزانة سيكون كل شيء على ما يرام، فقط لهذا اليوم. وأكدت على كم كان كل هذا مهما لي. كم من المهم أن تراني عصابة ريلواي مع أمي وأبي المثاليين. كم من المهم أن يدركوا أني لم أكن المتشردة التعيسة التي عرفوها دائما.

هكذا انتظرت بصبر في دائرة حول نارنا الكبيرة مع بقية

14- ليلة الألعاب النارية أو ليلة جاي فوكس احتفال شعبي يجري في بريطانيا ليلة الخامس من نوفمبر من كل عام.

الأطفال وآبائهم وأمهاتهم. أشعلنا واحدا أو اثنين من ألعابنا النارية وأكلنا بعض الخبز المحمص المحروق، وبعد ذلك ظهرت سيارة أخي من وراء الناصية. بدأت الدموع تسقط على حذائي قبل أن أصل إلى السيارة، وعندما وصلت ازداد الأمر سوءا. أخرج أخي وكاثي كيسين من البيفبرجر وقال جيمس: «لقد ذهبت إلى حانة (دير)، ستراكِ لاحقا.»

في النهاية، كنت أود أن أستدير وأجري إلى داخل النار مباشرة. لم أكن أجهز فقط لليلة ألعاب نارية، بل لصدمة (أطفال ريلواي). كانت صدمتهم لتجعل ليلة الألعاب النارية تلك أفضل يوم في حياتي؛ لكن مثل كل شيء آخر، لم يفلح الأمر تماما. وقف الأطفال منتظرين وعلى وجوههم علامات الفضول والاهتمام. كان بمقدوري رؤية «قلنا لك هذا» على شفاههم ولم أعد أريدهم أن ينظروا إليّ أكثر من ذلك. جريت وجريت. لكن إلى أين كان بمقدوري أن أجري؟

استيقظت ذات ليلة على صرخة. ذهبت لأتحرى الأمر لكنه كان كما توقعته بالضبط، رأيت أبي يضرب رأس أمي في حامل الهاتف. بلا تفكير، غطست إلى الدور الأرضي وهبطت على ظهر أبي. ولأني نحيلة بشكل مؤلم، لم يكن لي أي تأثير وسقطت من عليه. كنت قد تركت فراشي عارفة ما كان يحدث بالضبط، تماما كما كان يحدث طوال شهور، وكنت قد قلت لنفسي لا شعوريا

أن أتجاهل الأمر مرة أخرى. كنت أعتقد أني أكره والديّ كليهما. رفعت بيلاً وجهها ناظرة إليّ، وهي أغبى من أن تساعد. خلفها كان هناك تل من الأطباق القذرة وطاسة واحدة لامعة على لوح التجفيف. ربما كما رأيت في فيلم صامت غريب، جريت وضربت بها وجه بابا الأحمر ومرة أخرى ضربت بها مؤخرة رأسه.

قضيت الليلة في سيارة أمي الآڤينجر الزرقاء، المركونة في ظهر المحل الصيني في (بارك رود). لساعة أو ساعتين أنصتنا أنا وأمي إلى الجدل الدائر والركل الحي في المحل المغلق. أنصتنا وضحكنا على سرعة وحدة صوت مالكة المحل وهي تتحدث لغتها الغريبة، ودخنت أمي بضع سجائر واستغرقت أنا في النوم.

كانت الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا عندما أيقظنا شرطيان بغلظة.

"ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت يا حبيبتي؟"

"وما شأنك؟"

"شأني الكثير عندما أرى طفلة في هذا السن تنام في سيارة."

"أنا أختبئ من زوجي."

"لماذا؟"

"لأنه فظيع.." قلت بصوت حاد كالزقزقة.

فقدا الاهتمام وطلبا منا أن نأخذ حذرنا، قبل أن يغادرا.

أصبح بابا العدو الذي كانه أبي ذات مرة. كانت الكدمات والدموع والليالي المقضية في السيارة هي نفسها بالضبط، لكني لم أكن نفس الطفلة. هذه المرة كنت أكبر بسبع سنوات وكان لديّ شقاء فهم الأمر كله. كان لديّ مقعد في الدرجة الأولى لمشاهدة عرض زواج اختل مساره الوظيفي. رأيت أمي مع رجل آخر. رأيت أبي يشرب حتى لا يعود بمقدوره أن يحتفظ بالشراب في جوفه. رأيت الأطباق المكسورة والدم الدافئ يبقع السجادة وسمعت رأس أمي يضرب الحائط، مرة بعد مرة. ارتطام ثقيل مرارا وتكرارا بينما تفقد الوعي على وقع ترام تي ترام، ترام تي ترام الصادر من رأسها. وكان قلبي يدق ترام تي ترام بإيقاع غضب أسود لم تكن لديّ وسيلة للتعبير عنه أو استخدامه.

كنت كبيرة بما يكفي لأن أعرف بالضبط ما كان خطأ وعمق الدمار الذي يتسبب فيه، لكني كنت أصغر من أن أعرف ماذا أقول وماذا أفعل. لم أعرف لأني لم أعرف ما كنت أريده. فكرت في انتقال أمي للعيش مع صديقها وفكرت في طلاق آخر. فكرت في تحمل الأمر وفكرت في إخبار جديّ، لكن كل الأشياء التي كان من الممكن أن أفكر فيها كانت تقود إلى مزيد من العنف، إلى مزيد من كسر القلب، ومزيد مما كنت أسكت عنه طوال حياتي.

لذا عشت أغلب الوقت في كوخي وتجنبت والديّ كليهما أكثر

مما كان يتجنب أحدهما الآخر. مقرفصة في ركن، شعرت أني أشبه بقرد يسير على قشر بيض. لا أرى، ولا أسمع، ولا أتكلم بسوء.

5

كانت أمسية سبتمبرية في عام 1987، بعد أسبوع من بدئي المدرسة الشاملة، عندما كنت متمددة في الفراش والأضواء مطفأة، أحاول النوم. انفتح الباب مصدرا صريرا. وقف مشعرا ومخمورا بسروال داخلي أبيض. تحرك مقتربا من فراشي. تقلبت مبتعدة ورفضت أن أبقي عينيّ مفتوحتين.

ملأت رائحة نبيذ التفاح المتخمرة حجرتي.

انزاحت البطاطين وصلصلت المرتبة بينما يدخل الفراش ويحتضن جسدي الهش ذا الأحد عشر عاما. كان بمقدوري الشعور بجرمه اللحيم على بُعد شعرة، يتحرك ببطء نحوي، ويلمس جلدي. لويت وجهي بإصرار وأملت أنه إذا بقيت ساكنة تماما فلعله يرحل. بالإضافة إلى ذلك، سمرني الخوف في الملاءات لأنه بطريقة ما كان لديّ فكرة عما سيحدث بعد ذلك.

مد يده السمينة بينما تكورتُ بحماقة معتقدة للحظة أن بمقدوري أن أحمي نفسي. قبض على سروالي القطني المطبوعة عليه كلمة «**Tuesday**» وأمسك بذراعيّ في إحكام، مصيبا إياهما بكدمات على الفور وهو يفعل ذلك. كان هناك الكثير من التحسس

والألم الفاتر، وبعد خمس دقائق من المناوشة تحول الألم الفاتر إلى وجع بالغ.

انتهك بكارتي ومشاعري على السواء.

نهض بعد عشر دقائق، ورفع سرواله وترنح بعصبية متجها إلى الباب المفتوح. «لو قلتِ لأمك ستأخذ علقة عمرها وأنت كذلك.» ربط كلماته معا دون فواصل وتركني في بركة من الدماء وسوائل الجسد. تدفقت الدموع التي لم ألاحظها حتى ذلك الوقت هابطة على وجهي واستقرت على لساني الظمآن.

حدقت في سروالي بين ساقيّ. قطن أبيض غارق في دم مؤكسج لامع. كلمة «**Tuesday**" والزهور الصفراء الصغيرة لا تكاد تُرى. كنت مصعوقة لدرجة منعتني من الحركة أو التفكير، سمعت عودة أمي، والمطر الذي لم ينقطع فوق النافذة وجدران البيت حتى كاد الليل ينطوي. كل دقيقة مرت كعمر بأكمله.

عند مطلع النهار طويت الملاءات المبقعة بالدم والتي كانت ليمونية اللون سابقا، والسروال الغارق في الدم، في صرة خرقاء الشكل وزحفت إلى الطابق الأرضي. كانت كل حركة أشبه بحياة حقيقية تلمس السلك المعدني وتنطلق صفارة الإنذار في تلك

اللعبة[15]. وجدت مكانا كافيا للإخفاء في كوخي. وهناك دسست الملاءة في درج خشبي مكتنز كانت تحتله لعبة "كونيكت 4" وثلاث عرائس باربي بملابس غير لائقة.

بدأت أدعك جلدى حتى أدميته. جسد أحمر مبقع محترق عمره أحد عشر عاما في حمَّام من المطهرات. استغرق الأمر قرابة شهر قبل أن أعرف أن القذارة اللزجة ستبقى إلى الأبد.

لم تكن هناك حياة بعد الاغتصاب. خرجت كلمة «الثقة» والإحساس بها من قاموسي وانفجرت في جو خانق قليل الهواء، لتهبط في كومة من بتلات الزهور أمام قدميّ.

اكتسبت نوعين من الرهاب ذلك المساء: الخوف من الأبواب المفتوحة، والخوف من الناس. كل الناس.

بدت الحياة عملية يتم فيها انتزاع الأطفال من أنفسهم. اخترت أن أقصي نفسي عن هذه الممارسة. وبطريقة ما انتهى بي الأمر في تابوت زجاجي. مسكن يمكنني منه أن أرى وأسمع الحياة وهي تدور من حولي، لكن المشاركة منه غير ممكنة.

لم يكن الكلام ممكنا. كان يمكنني أن أعيش الاغتصاب من

15- الإشارة هنا إلى لعبة بسيطة تصنع يدويا عن طريق سلك نحاسي مثبت في شكل ملتو على لوح خشبي وعلى اللاعب محاولة تمرير حلقة من السلك في مسار السلك الملتوي دون أن يلمسه، وفي حالة لمسه تنطلق صفارة الإنذار. والمجاز بأكمله يشير إلى حركتها الحذرة في نزولها.

جديد كل ليلة وأعزي نفسي بالاختباء تحت الفراش، لكن قول كلمة بسيطة ككلمة «نعم» أصبح مهمة شاقة تستدعي الدموع وتثير الشك.

قررت أمي أنه ينبغي لي أن أذهب إلى الطبيب؛ وأخبرته أني منسحبة للغاية وأني أبكي طوال الوقت. جلس أمامي وتحدث إليّ بخليط غير مسموع من الإنجليزية والباكستانية. تناقض لون بشرته مع مكتبه الأبيض. لو كانت إنجليزيته سليمة تماما لرفضت أكثر من ذلك أن أستمع إلى أسئلته واقتراحاته اللانهائية. «سأكتب لك دواء مقويا.» هل كانت ترجمة هذه العبارة: «سأعطيكِ سما ينهي معاناتك؟» لا يمكن الثقة بأحد، لذلك كنت آمل أن يكون هذا هو معناها.

لم يعرف أحد بالواقعة. لو عرفوا لأدركوا أن عجزي عن الكلام والإنصات نتج ببساطة عن الآثار الجسدية للاغتصاب. بالفعل تدهورت حالتي الجسدية؛ لأسابيع شعرت وكأن عصا مكنسة قد أُقحمت بين ساقيّ، وانغرست في جسدي وعلقت فرشاة المكنسة في حلقي. كان هناك الكثير من الدماء والكثير من القيء. وكنت دائما قلقة من أن تنفصل ساقاي عن فخذيّ. وبدأ جلدي يتقشر بسبب الدعك والحك الدائمين.

وكان السبب وراء اختياري للامتناع عن الحديث أو الإنصات هو ببساطة أنه لا يمكن الثقة بالناس، وما كان عليهم أن يقولوه

ربما كان أكاذيب. لم أصبح ضحية مفاجئة للجنون. لقد أصبحت ضحية مفاجئة لوغد. ولم أنظر قط إلى أي كائن بشري آخر بمودة كبيرة أو دون شك منذ ذلك الوقت.

بقدر ما بحثت عن أسباب كافية لجعل الحادثة عادية بقدر الإمكان، لم يكن هناك أي تفسير لأن يستدير أحدهم ويغتصبني. في مواجهة هذا النوع من المواقف لا يستطيع أي طفل إلا أن يخلق حائطا من البارانويا. كان العالم ضدي.

لم يرتقِ تهديد ما بعد الاغتصاب لأن يكون تهديدا حقيقيا من أي نوع. فقد نالت أمي بالفعل، بإجمالي أربع مرات، علقة عمرها، وبدا حتميا أن تنال واحدة أخرى سواء تكلمتُ أم لا. بعد العيش لمدة أسبوع برحم دامٍ وعصا مكنسة مغروسة في أحشائي، كان الضرب ليغدو مصدر إزعاج قليل. تهديد؟ كان يمكنني أن أضحك على هذه العبارة لو لم تذكرني كثيرا بجسده العاري المبقع بالدم. لم أستطع أن أخبر أحدا ببساطة لأن أمي كانت لتقتله، وتذهب إلى السجن، وأغدو يتيمة. أو ربما لن تصدقني وتضعني في مركز للرعاية. سيعرف الناس. سيسخر الناس مني. سيعرف الناس أني لم أكن عادية. لم أكن مهتمة فعلا بأي شيء على نحو خاص. كنت أعيش في صندوق شفاف، يرى من في الداخل الخارج. ولا شيء يهم فعلا.

كانت حياتي حتى هذه اللحظة حياة طفلة. مسألة توازن.

وكانت الأحداث تتشكل من الأبيض والأسود، الخطأ والصواب. وفجأة سقطت عليّ ظلال عديدة للون الرمادي، وهذا ما أربطه بفقد البراءة، أول قرار كان عليّ أن أتخذه وحدي. حائط الارتباك الذي من المفترض به فقط أن يعوق الكبار منحني حاجزا للانكماش خلفه. فقد العذرية، هكذا حاولت أن أخدع نفسي، لم تكن له علاقة بالأمر وحدث لاحقا في الحياة. بالطبع عرفت فعلا أن كلا الجانبين للبراءة سُرقا مني دون داع.

6

هيمن عليّ بشدة تصوري أن النوم على ظهري سيتسبب في موتي، واعتقدت أن العكس سيكون مجديا. سيدفنونني على جانبي.

عندما كنت في الحادية عشر من عمري وكنت أريد بشدة أن أموت، بدأت أمنع الأكسجين عن رئتيّ. كنت أغلق فمي وعينيّ وعقلي وأرقد ساكنة وذراعاي متقاطعان فوق صدري. فشل روتيني اليومي ذاك بشكل شديد البؤس، حتى أني اكتشفت أنه من المستحيل أن تقتل نفسك بهذا الأسلوب المثير للشفقة. كما اكتشفت أنه من المستحيل عليّ أن أنام على ظهري. طمأنت نفسي أني لو تمكنت من هذا سأموت على الأغلب. وحاولت أن أجذب آخر أنفاسي، بالنوم ورأسي متجهة نحو السماء.

ربما كان الوقت في أول المساء. كانت القنبلة الصفراء الكبيرة تغرق. والضوء المبهج ينعكس من عمود الفولاذ المقاوم للصدأ في الحديقة. كان بمقدوري رؤيته من حيث كنت أقف فوق الفراش. لبث أبي خلف حافة الفراش يخبئ وجهه بينما كانت أمي تصرخ وتعاود الصراخ: «سجادتي، سجادتي اللعينة.»

لم أحب المصباح قط على أي حال. كانت نقشته أقرب شبها لبصمات الأصابع؛ وبصمات الأصابع تثير غثياني. العكّ الذي كنا نسميه فنا في مدرسة الأطفال حيث كنا نغمس أيادينا في الألوان وبعد ذلك نلطعها على الورق، كنت أكره ذلك دائما. هكذا أثارت الخطوط المحفورة غثياني، تلك البشرية والفريدة مثل الشعرات البادئة في الظهور تحت إبطيّ، شيء مقرف.

لا أتذكر ما حدث. فقط رأيت النهاية، الذروة العنيفة. كان المصباح ثقيلا وانكسر على جانبيّ رأس أبي. انشطر الجو، كمخمور صاخب، وتخدر مصحوبا بدوار شرب ثقيل. كانت هناك مكالمات هاتفية وصراخ وسيارات إسعاف، وفي وسط كل هذا اختفى أبي. جرى ممسكا رأسه كأم ترفع رأس طفل رضيع، خارجا إلى الشارع. ظللت أراقب العمود طوال الوقت. كانت الشمس تضربه، والدم ينبجس من رأس أبي، وأمي تصرخ كخلفية لكل هذا، وأنا أشعر بنبض خدر يحول بيني وبين كل الكلمات والأفعال والمشاعر. لكني لم أستطع التوقف عن التحديق في العمود. تقشر الدهان بلون الماجنوليا، الشمس والظل. استغرق رجال الشرطة خمس عشرة دقيقة كي يصلوا وغادروا بعد خمس دقائق. نظروا إلى شظايا المصباح والسجادة المدماة وقالوا: «طيب، إنه ثقيل إلى حد كبير، لكنه شأن عائلي يا حبيبتي، لا يمكننا أن نفعل الكثير إن لم تكوني على علم بمكانه.»

قالت: «أعتقد أنه بحاجة إلى غرز.»

قالوا: «طيب، فلنأمل أن تعثر عليه الإسعاف.»

فلنأمل ألا تعثر عليه الإسعاف. فلنأمل أن ينزف حتى الموت. انقشع الخدر قليلا في رأسي، بما يكفي فقط للتمكن من التفكير في بضع كلمات. لم أنطق بشيء طبعا. فقط ظللت أراقب العمود.

جعل هذا مشاكلي مختلفة عن أي نشأة قاسية لأي طفل آخر. جعل أبي وأمي كليهما سيئين بنفس القدر تقريبا؛ إذ لم تصرخ أمي قط طلبا للمساعدة ولا حاولت الهروب.

لم تعش في خوف، لم تخش الحركة: كانت ترد الضربة بمثلها. أحيانا كان الأمر تقريبا وكأن أمي وأبي روميو وجولييت سكيران متعاركان. هل كان مقصودا أن يكون الأمر هكذا؟ كنت أتأذى وأصرخ وكان منظر الكدمات السوداء والزرقاء يخيفني، لكني لم أكن واثقة قط إن كنت حساسة أكثر من اللازم؛ لأنه بدا كثيرا أنهما يستمتعان بالجدال لمجرد الجدال.

اقترب وقت أعياد الميلاد دون أن تلاحظ أسرتي. كانت الحياة تدور حولي دون أن تلاحظني. فقط عندما سألتني أمي إن كان ينبغي أن نشغل بالنا بتهذيب الشجرة تذكرت أن الكريسماس على الأبواب. وحتى عندئذ لم يكن شيئا يستحق القلق بشأنه. ستكون ماما في العمل، وسيسكر بابا سكرا مبينا، وسأستمر أنا.

غير مرئية.

ركزت على أضواء الشارع الكهرمانية عندما شعرت بعصا المكنسة للمرة السادسة. كان قد سكر سكرا مبينا ونسي أن يغلق الستائر. وكان جوفي خدرا كذلك الآن. جوفاء حتى أن أي شخص أو أي شيء شعر بمطلق الحرية في الاقتحام. حيث يحك ويُبلي ويوسخ قلبي ورئتيّ وكبدي وكل شيء كان ينتمي إليّ ذات مرة. لم يكن هناك شيء يمكن إيذاؤه وكل شيء تحت الطلب، لذا يمكنه كذلك أن يسحقني كحلزون بنيّ كبير ويتنفس بصوت عالٍ وبغير انتظام عبر أنفه المتعرقة كما كان. لا أعرف من أفلت أولاً عندما تناهى صوت طرق على الباب الأمامي. لويز. كانت قد دعتني إلى قداس منتصف الليل. في اللحظة التي وُلد فيها يسوع المسيح، بعدها بآلاف وآلاف السنين، كنت أتعرض للاغتصاب.

هكذا، بدأ ينجرح تجوّفي عندما فكرت في أبي الحقيقي. لم أستطع أن أتذكر ما يكفي عنه، فقط أنه كان يملك شاربا زنجبيليا، ولم أستطع أن أنسى ما يكفي عن زوج أمي لأني كنت أعرف أني أعرف أكثر من اللازم. لم تكن هناك نعم ولا، ولم يكن هناك ما بينهما. نسيت ما كانه الأب في يوم واحد بينما استغرق الأمر مني خمس سنوات لأعرف.

كان ذلك بعد رأس السنة عندما أوقفت أمي كل شيء بالصدفة. فعلت شيئا عنيفا وفعلته من أجل نفسها. الحب الذي

حملته لما كانت تفعله لم تكن له علاقة قط بالكراهية التي شعرت بها نحوها وهي تفعل ذلك. لقد دُفعت، انضغطت إلى الحافة، لكن هذا لم يغير حقيقة أن هذا يمكن أن يكون نهاية واضحة لمعركة شديدة الاستهلاك للطاقة. كنت أتجنب المدّ العالي وعشت في الجحيم لأمنعها من فعل هذا، وهو ما ضغطني في مكان بعيد إلى ما وراء الحافة.

خطت مبتعدة وسقط على ظهره كالحجر. لم أستطع رؤية السكين. ظلت أمي تتراجع بظهرها نحوي. كانت تخطو برفق، مرتعشة، ومؤخرة رأسها تقترب أكثر من وجهي. وعندما أغمى عليها جاء الإدراك غامرا. كان هذا أكثر مما يمكنني التفكير فيه، وخطوت نحو أبي بعبارة ظننت أنها ستيتمني: «الفضول قتل القط..» لكن عندما وصلت إلى هناك، عندما رأيت أخيرا أنها أخفقت، كان هذا بنفس الغباء الأخرق الذي كان الأمر عليه عندما فتحت درج المطبخ أولاً.

لا يمكن أن تكون دار الأيتام بهذا السوء. لا يمكن أن تكون في فظاعة سكين خبز مغروس داخل الجزء العلوي من ذراعه. مرة بعد مرة، ظللت أرى ذراع زوج أمي الدامي.

لفترة كان البيت صامتا. كنت أعرف الصمت جيدا ولم أندهش من معرفة أن العنف يمكن أن يهدئك. لا أمي ولا أبي عرفا أو اهتما به بطريقة أو بأخرى. كانا أكثر انشغالا بحصة كل منهما من

الكلمات كي يتعارك أحدهما مع الآخر. لذا كان عليّ أنا أن أخطو من فوق حافة العالم، لأني إن لم أفعل ذلك، سنفعل جميعا.

كان الحب والكراهية والارتباك يدورون في المكان مثل التدفئة المركزية. كانوا يلعبون ألعاب الحب/الكراهية وجلست أحدق، متأملة، لكن دون أن أذيب قط حائط الارتباك.

كان الصيف قد عاد مرة أخرى عندما قررت أني نلت ما يكفي. بعد ظهر الأحد شربت أمي وزوج أمي أكثر من اللازم وقت الغداء ليستمرا مواصلين حتى العشاء وذهب كلاهما إلى الفراش. لم يكن من المعتاد أن يذهبا إلى الفراش معا. كان بابا ينام في الحجرة الأمامية أو تنام ماما معي. وأحيانا كانت لا تعود إلى البيت قط وينام بابا معي. من وقت لآخر كانت ماما تسهر طوال الليل أو تنظف المطبخ أو تجلس في السيارة. وكان بابا مازال قلقا بشأن «سرنا» وكان يدخل لوقت خاطف عندئذ. يدخل لوقت خاطف.

ولم يبدُ كأنهما في الفراش. الخبط والصراخ والفوضى التي جعلتني أشعر بالخدر مرة أخرى. وكانت هي أول من نزل إلى الطابق الأرضي. «يقول إنه سيقتل نفسه. سأساعده.» كانت خشخشة الأقراص والكوب الذي أعدته أمي تسبب لي ألما في معدتي. كنت أعرف أن بمقدوري التخلص من ألم معدتي لو ساعدتها كي أساعد نفسي. قبل أن أسمع كلمة مما قالته أمي، كنت أوصل لترات من الماء وألوانا من الأدوية القاتلة إلى جوار

فراش أبي. وعندما أصبح كل شيء موجودا هناك، أمسكت هي رأسه وألقت بعض الأقراص في فمه بينما صببت الماء في فمه القذر. كانت رغبتي مطلقة في قتله قبل ذاك، وبدا شعورا سليما. «أنا أمحو القذارة التي تسكن في بيتي وحياتي.» اعتقدت أن عقابه كان لينا جدا، حيث ينتهي أمره في سكون بينما جريمته كانت بطيئة جدا ومستمرة ولا شفاء منها.

"مُت.." أنشدنا بينما المخارج السهلة تجد طريقها. "مت أيها الوغد.." قالت أمي في مدخل البيت. "مت، مت، مت.." صرخت أنا بينما كنت أضرب الأرض بقدمي حول الفراش، ناظرة في عينيّ الوحش اللتين كنت أخشى النظر إليهما لزمن طويل جدا.

كانتا تنغلقان قليلا، لكن ليس بما يكفي. «مت.» ارتميت على الشيء المحتضر بوسادة وضعتها فوق وجهه. «مت» قالت الفتاة ذات الأحد عشر عاما التي كانت ميتة عاطفيا بالفعل. وطوال الوقت كانت أمي تعتقد أني أفعل هذا من أجلها. «مت..» قالت برفق، وهي تسحبني خارجة وتغلق الباب.

جلسنا لأربع ساعات نأكل الملبن التركي ونبتسم في صمت قبل أن تضطر إحدانا لقولها. قلقة ومازلت جائعة، سألتُ بتخاذل: «هل أذهب لأتأكد؟» لا أذكر إن كان أبي راقدا، يشخر كأسد سمين في الفراش، أم أن عقلي فسد من حلقات مسلسل (بروكساید) وكان هو يتسكع في مدخل البيت، مازال حيا وقبيحا كما كان

دوما. أذكر أمي تتنهد خلفي قائلة: «لا، لا، لا، لقد تقيأ!»

لا. لا. لا.

مرة أخرى ساد البيت صمت الجنازات. لكن أحدا لم يمت، على الأقل ليس إكلينيكيا. في مكان ما، كانت الأشباح تصرخ، كائنات لا تملك وسيلة لإظهار نفسها أو تجسيدها. أرواح كانت تصرخ فقط من أجل أن ينفتح باب لها. تتوق لمدخل يؤدي بها إلى العالم المسموع، لكنها كانت نائية جدا، والزجاج محكم الإغلاق جدا. لا أحد يمكنه أن يسمع همهمة.

ربما سمع أخي ذبذبات قبضتيّ على الزجاج، أو دبدبات أظافري على الغطاء. الغطاء الذي لن ينفتح والدبدبات التي تباطأت لتصل إلى سرعة العدم لأن الاختناق أودى بكل الطاقة. كنت أراه مرة أو مرتين في اليوم جالسا إلى مائدة المطبخ. كان مستاء من مشاكلنا لأنه يفضل أن يرش سيارة أو يُقبّل صديقته. كان مضطربا وينتظر أن يحدث شيء ما. ألم نكن كلنا كذلك؟

استغرق الأمر أربعة شهور من أمي كي تتخلص سرا من كل أموال الرهن العقاري من جمعية البناء[16] وتضعها كل خميس في صندوق سيارتها. أربعة شهور من المكالمات الهاتفية لمكاتب

16- جمعية البناء هي مؤسسة مالية مملوكة من قِبل أعضائها باعتبارها منظمة مشتركة. توفر جمعيات البناء الخدمات المصرفية والخدمات المالية المتعلقة بها، بشكل خاص، قروض الادخار والرهون العقارية. تتواجد جمعيات البناء في المملكة المتحدة وأستراليا، وتوجد في آيرلندا والعديد من بلدان الكومنولث.

التأمين الاجتماعي، والعقارات السكنية، والملاجئ. كي تخفي الخطابات القادمة من البنك والتي كانت لتخبر أبي أن البيت سيُسترد. كي تزور بيت البلدية الذي سنزينه أنا وهي في أسوأ عقار في جنوب ويلز. لتحزم الأساسيات دون أن يدرك أحد اختفاءها. وعندما انتهى العمل السكرتاري، عمت ما أسمتها بـ «الحرية».

ألقت أمي الخطبة التي ستجعل أبي يُجن، في صحبة أخي، الذي وضع ذراعيه حولنا ليحرسنا إلى الباب. وضعت صديقته آخر حقائبنا في السيارة. كان من المريح رؤيته عاجزا، متشبثا بالسياج حتى لا يقع. أشحت بنظري بعيدا، كابحة دموع عاطفة ما، واستدرت لأسير خلف أمي.

ضرب ألم ما عنقي وكلما حاولت أن أدفع الغطاء بعيدا، كلما شدني ضعفي إلى الوراء. أمسك زوج أمي بشعري في إحكام شديد حتى أني اعتقدت أن عنقي ينكسر. وكنت أفضل لو انكسرت بدلا من جذبها إلى الوراء. تعثرت، وتعلقت بحافة الدرج لأرى يده وشعري فيها. انقضت أمي عليّ، وأغلقت صديقة جيمس الباب على أخي وهو ممسك بعنق زوج أمي.

كل ما استطعت الشعور به هو الكلمات والألم. «الحرية. هذا. سوف. نحصل. بأمان.» كل شيء يؤلمني. «طريق واحد.» «بأمان».

لا، أنا لم أفلت.

7

لم تكن لأبي الحقيقي أي وظيفة ثابتة قط. عمل في مصانع الصلب في بورت تالبوت لزمن طويل، وعمل في مصانع عديدة لوقت قصير، لكن في عام 1964 كان يبني مشروع عقارات سكنية فوق قمة جبل. وحصل على أجر جيد لأنه لم يكن يبني فقط، بل كان يحتفظ بسر للمجلس البلدي. فأثناء محاولتهم تسوية الأرض ظل العمال يجدون هياكل عظمية. الآلاف من الهياكل العظمية البشرية. وكانت الإشاعة التي راجت في بيوت الرجال أنهم يبنون فوق مقبرة رومانية.

قبل عشرين عاما من أن يخطو أبي بقدمه على الجبل، كان جدي باول يمر بسيارته عليه كل صباح في طريقه إلى العمل ويقسم بأغلظ الأيمان أنه كان يتحدث إلى رجل مقطوع الرأس اسمه ريس هناك. من الواضح أن الناس كانت لديها شكوكها، لكن بمجرد أن حصل أبي على مكافأته الأخيرة، جرى تسمية المشروع العقاري -لأسباب مجهولة- باسم (بينريس).

انتقلنا أنا وأمي إلى بيت على أطراف المشروع العقاري

قبل وقت قصير من الكريسماس عام 1991، وإبان ذلك كانت هذه المنطقة هي عاصمة المخدرات والجريمة في وديان جنوب ويلز، وأكثر المناطق ذكرا في موضوع الفقر والمشاكل في أي مكان في ويلز. كانت تلك المنطقة محاطة بالغابات وعلى بعد ميلين من الحضارة، وتجنبت الشرطة بينريس لأنها كانت تجعل حياتهم آمنة وأقل توترا بشكل عام. كانت سجنا للأبرياء وملاذا للمجرمين، وهو الوضع الذي سيستمر في ابتلاء حياتي، لكن جزئيا فقط لأني كنت أعيش في أرض العقارات.

أجبرتني إحدى مؤسسات الحياة الوضيعة على أن أحبس نفسي في حجرة نومي مع بضع مئات من الكتب وتسجيلات أخي القديمة لفريق (كلاش)[17]. وهكذا ظلت الحياة صامتة. نادرا ما كنت أرى أمي، ناهيك عن أن أتحدث إليها، لكن في لحظة ما قرب ذاك الوقت بدأت أدخن من سجائرها. التدخين والقراءة والاستماع إلى تحطم الزجاج. الاستماع إلى أغنية (**London Calling**) ومراقبة الباب المغلق بقلق والنظر عبر النافذة إلى السماء وهي تتحول إلى اللون الأحمر ليلا، والنوم متكورة كقطة في الجزء الأسفل من فراشي في الساعات الأولى للصباح. المراقبة، وانتظار مجيء الحياة الطبيعية. مجبرة على السير حيث يمكنني العثور

17- فرقة روك إنجليزية نشطت في الفترة من عام 1976 إلى 1986. تعد من أشهر وأنجح الفرق لموسيقى البانك في أواخر السبعينات. وقد قاموا أيضاً بدمج موسيقى البانك بالريجي، والجاز، بالإضافة إلى العديد من الأنواع الموسيقية الأخرى.

على راحة البال، حيث يمكنني أن أكون آمنة. أدور وأدور حول حجرة النوم في دوائر، دوائر، دوائر، أكثر رعبا من أن أخرج لكني أكثر رعبا من البقاء في الداخل كذلك، وطوال ساعات اليوم كنت أسمع صوت تحطم بعيد. لماذا لا يحطم أحدهم زجاجي؟

بعد قليل من انتهائي من رواية جورج أورويل (1984)، تعرض الرجل الذي كان يعيش في البيت التالي للبيت المجاور لنا للركل حتى الموت في حديقته. أقنعت نفسي أني سمعت صراخه يعلو على أغنية فريق سيكس بيستولز (Who Killed Bambi?) لكني في الحقيقة كنت محظوظة بما يكفي فقط لأن أرى وأتسلق فوق متاريس الشرطة في طريقي للمدرسة، مبكرا في الصباح التالي. ما بدا أشبه بخيمة على طراز خيمة السيرك كانت قد انتصبت في طريقنا، وبينما احتشد الناس حولها لينالوا لمحة من الدماء، ظللت أسير في طريقي، مفكرة أني عرفت ما يكفي من الأرواح الميتة بالفعل.

أتذكر بعد سنين مشاهدة أمير ويلز في تليفزيون صديق وهم يسألونه عن مناطق المشاكل في جنوب ويلز. «نعم، نعم..» هكذا قال. «لقد قيل لي الكثير عن منطقة سكنية فوق جبل تُدعى بينريس، ونحن نجمع أموالا من أجلها.»

وبينما كنت أصر على أسناني، سقط عالم المَلَكية السحري كله على ركبتيه في ارتباك زائف. من يمكن أن ترغب في أن تكون

ماكينة تزاوج لأسرة فاسدة مقودة كسولة كهذه على أي حال؟ وفجأة بدت كلمة «عاهرة» أحلى من كلمة «أميرة».

بينما كنت نائمة ذات مساء فوق أرضية المطبخ إلى جوار بيلاً استيقظت على عويلها وتقلبها على ظهرها؛ وهي تخمش كتفي كأنها تطلب مني الاتصال بالإسعاف. عندما وصلت أمي إلى البيت في الصباح أخبرتها أن بيلاً لديها ورم كبير في بطنها. تفحصته وأجرت مكالمات هاتفية. وخلال شهر جرى استئصال الورم السرطاني من بيلا وخاطوا جسدها، لكنها عضت غرزها ونالت المزيد، ثم عضت غرزها ونالت طوقا على شكل قمع منعها من أن تفعل أي شيء غير النظر إلى الأمام. صارت تصطدم بالمناضد، وتسقط متعثرة في أطر الأبواب وأصبحت بائسة مثلي. حُبست بيلا في سجن من البلاستيك كان من المفترض أن يجعلها أفضل حالا. كلانا كنا نخمش أغلفة تحبسنا على أمل أن تكون هناك بعض الحقيقة في العبارة القائلة: «أي شيء لا يقتلك سيقويك.»

تلقيت تعليمات صارمة بعدم خلع طوق بيلا، لكن عندما كانت أمي تغادر إلى بيت صديقها كل ليلة، كنت أخلعه. في التاسعة كنت آخذها إلى أحد الحقول وأجري معها في دوائر، ودوائر، ودوائر. كنت أبكي، وأعود في الحادية عشر. لم نستطع الكلام أنا وأفضل أصدقائي، كنا نحن الاثنتين في ألم، كنا نحن الاثنتين في الثالثة عشر من عمرنا ونعيش في أرض إعانات البطالة وحدنا

في منتصف الليل، لكننا كنا نجد فواصل قصيرة من المتعة في الجري والهروب، ثلاث ساعات كل يوم.

لكني كنت مازلت أشعر بالجنون وكانت بيلا مازالت مستمرة في العويل. ذات يوم طرقت خالتي على الباب وأخذت بيلا إلى سيارتها. نظرت من النافذة، بيلا تسير، تموت بشكل غير لائق وثمة غطاء مصباح بلاستيكي مازال مثبتا على رأسها. شعرت بالدمار يمسك بي من رسغي ويهزني بعنف شديد، ولم يكن بمقدور أمي أن تقترب مني بما يكفي لمسح الدموع.

كرهت أمي لأنها لم تكن قريبة، لكني لم أكن لأدعها تقترب بأي شكل. لم ألاحظ إن كانت حاولت. كان اسم صديقها مارتن وكان يعيش هناك في هندريفادوج. كان يمر لأخذها في أول المساء ويعيرها سيارته لتعود إلى البيت في الصباح. كانت تشكو عندما تكون في البيت من صمتي وحبسي لنفسي بعيدا. من المفهوم أنها كانت متيقنة تماما مما كانت تدعوه «بؤسي وخمولي غير القائمين على أساس». من المستحيل تذكر كلمة منطوقة واحدة في بينريس بعد ذهاب بيلا للنوم؛ ومع ذلك، فإن الصرخات والصيحات مألوفة على نحو بغيض. بدا ماكياج أمي الجيني بسيطا. نصفان لشخص واحد، النصف الأول لسيدة خالصة. تسير وتتحدث وتنظر كفتاة نجمة. كانت تضحك وتبتسم وتتكلم كملاك؛ وكان بهاء حضورها واضحا بشكل خاص عندما

كنت صغيرة، لأن الأطفال يضعون تعريفا للناس بمجرد النظر، وهو ما يفسر جيدا لماذا نحن شعب واع بالمظاهر. ولماذا فقط الأشخاص الحساسون جدا أو القبيحون جدا هم من يعتقدون بالفعل أن الداخل هو ما يهم.

كلما تحدثت أقل وقرأت وفكرت أكثر، كلما أصبح من الأصعب أن أرى أمي في نفس الضوء. لقد حدث الكثير للغاية أمام عينيّ. حضرت أمي مرة واحدة فقط لقاء مسائيا للآباء في مدرسة هندريفادوج الابتدائية. كانت سكرانة وسرقت نبتة (قشطة دندروم) من الممر. وكانت صورها وهي تجرع الفودكا، أو تمسك السكاكين، أو تركب سيارة مارتن كل مساء هي الصور الأكثر بقاء في الذاكرة، المرئية أكثر، الحيوية أكثر. ابتسامة أمومية فخورة واحدة مقابل كل خمسين «كان ينبغي أن أستمع إلى الطبيب» لكل خمسة وثلاثين «اذهبي وعيشي مع أبيكِ». لم تعد هناك أي سيدة إطلاقا.

كان لديها وجه يحولني إلى حجر مرات كثيرة، وفي النهاية كانت كل كلمة بليدة الشعور تخرج من حلقها تقرفني، تقرفني إلى درجة أن انعدام التواصل كان إجراء ضروريا، حيث كان من قبل مجرد مشكلة كبيرة.

بدأت فترات حيضي الشهرية في الصمت الطويل الطويل الذي تبع معركة بشعة. ليومين تجنبت إخبارها بنمو ابنتها. كان

شيئا لم يبدُ أشبه كثيرا بالنمو بالنسبة لي، لأني كنت أشعر بالفعل كأني امرأة عجوز رأت ما يكفي وتنتظر فقط الموت لأنه الشيء الوحيد الباقي كي تراه. لكني كنت أعرف بطريقة غامضة أن الدورات الشهرية من المفترض أن تكون نوعا ما من الخبرة بين الأم والابنة، وأثناء رفع حوض سمن من الثلاجة توقفت، واقتحمت الحجرة التي كانت تدخن فيها بعد استيقاظها وقلت: «أنا أنزف.»

"ماذا؟"

"كنت أنزف هنا بالأسفل."

"ولماذا لم تخبريني؟" قالت.

غادرت كالعادة في السابعة ذلك المساء.

دخنت وقرأت ونزفت وصليت وتكورت كالقطة عند قدميّ الفراش في الساعات الأولى من الصباح.

وحدي.

8

سرعان ما أدركت أن الحياة الطبيعية لن تأتي. أن الانتهاك يمكن أن يكون بلا نهاية. أدركت أنه مهما ابتعدت بأميال كثيرة عن مسرح الاغتصاب، في محاولة لتجديد ذاكرتي، فإن الماضي يقيد الحاضر. كنت قد شفيت بدنيا، وأشار تغيير ورق الحائط إلى أني بقيت على قيد الحياة. لكن كان هذا هو كل ما فعلت. خرجت من الأمر حية، لكن سطوة اللحظة مازالت تتحكم بي. رجل يشنق نفسه على شجرة دون أن يكسر عنقه، قطع المسعف الحبل في الثواني الأخيرة الحيوية، يستمر في العيش إكلينيكيا، لكنه ميت ذهنيا. طعم الفَناء المُر أقوى من الكالسيوم الذي يبقينا أصحاء، وسيبلونا إلى الأبد. معرفتي بهذا جعلتني أهتم بنفسي أقل مما أفعل بأي شيء آخر.

قبضت الشرطة عليّ مع مجموعة من الأشخاص (الذين تفلت مني أسماؤهم، هذا إن كنت قد عرفتهم أصلا) في منطقة ديناس. كنا قد سرقنا بعض الملابس من حبل غسيل أحدهم، أو الأقل فعل ذلك أحدهم، لأني لا أذكر أي ملابس. ربما انتوينا هذا فقط. سألوني عن عنواني، وعمري، وأخذوني إلى البيت. لم أخبرهم أنه

لا يوجد أحد بالداخل لأنهم لم يسألوا. أخذوني إلى قسم شرطة (تون بنترا) حيث انتظرت أن يأتي أحد ليأخذني إلى بيت بعيد للأطفال. سألتني في السيارة، الإخصائية الاجتماعية، عن عمري.

"أنا في الثالثة عشر."

"طيب، لقد تركت أطفالي وحدهم، لكن لم يحدث هذا قط في الليل، عندما كانوا في الثالثة عشر... ماذا تريدين أن تفعلي يا ريبيكا؟"

"بشأن ماذا؟"

"أقصد من أجل الرزق."

"أريد أن أكون رسامة وشم."

"هذه وظيفة غريبة."

بقرة غبية. «هكذا يقول لي الناس.»

لم يكن البيت مخيفا إلا في حده الأدنى، لأنه بدا أشبه بمدرستي، غير أن أقسام المبنى كانت مسماة بالألوان بدلا من الأرقام. أُعطيت فراشا وإفطارا وبعد ذلك جاء رجل ليأخذني إلى البيت من جديد. «انظري إلى هذا كمغامرة..» قالت الإخصائية الاجتماعية. «لكن لو حدث هذا مرة أخرى، من الممكن أن تظلي.»

عندما وصلت إلى البيت كانت أمي واقفة على العتبة مضيقة عينيها وفاغرة فاها. انتظرت الإخصائي الاجتماعي الذي كانت قدمه ملتوية ولم يستطع السير بسرعة كافية ودخلنا من أجل مشادة كلامية أخرى.

"لا يمكنك أن تتركي طفلة في هذا السن في بيت في بينريس بينما تخرجين مع صديقك يا مسز ويليامز.»

"كنت لتفعل هذا لو كانت ابنتك."

"لو استمررت في فعل هذا ستقام ضدك دعوى قضائية وستبقى ريبيكا بالتأكيد."

"طيب خذوها."

"أنت لا تفهمين، بيتنا ليس مكانا تتخلصين فيه من أطفالك عندما تملين منهم."

"طيب، هي غير قابلة للسيطرة عليها."

"ربما كانت لتغدو أكثر قابلية للسيطرة لو حظيت بولي أمر ثابت."

بقيت في حجرة نوم مارتن الاحتياطية ذلك المساء واستمعت إلى بعض شرائط كاسيت فرقة (كوين) بينما ذهبت أمي مع مارتن ليتناولا وجبة في غرب ويلز. أكره (كوين).

باستثناء بضع تهنئات من وراء القلب، جاء عيد ميلادي الرابع عشر وذهب دون إثارة. قام مارتن وأمي بحجز رحلة طيران إلى (كورفو) بعدها بقليل. أُعطيت مفاتيح بيت مارتن لأحفظها، لأنه ببساطة أرادني أن أطعم قطته، وهكذا تنقلت ما بين هندريفادوج وبينريس لمدة أسبوعين. جربت الجنس بالتراضي لأول مرة في فراشهما مع رجل عرفته منذ وقت قصير في بينريس. بدا الأمر خاطئا جدا، وغير ممتع للغاية، ومقرفا جدا إلى حد فقد الوعي. ومع ذلك استمررت في النوم مع أبعد شخص عن التخيل، وأكثر شخص غير مرغوب، كانت لدي أسوأ فرصة لأن ألتقيه. كنت أعرف، في مكان ما في تجويف عقلي، أن شخصا ما سيلاحظ في النهاية. لاحظ أخي في اليوم التالي. تركت دفتر يومياتي على مائدة الطعام، ساهية عن حقيقة أنه كان لديه مفتاح أيضا. أتى مهتاجا في الليل. لم يرد أن يقابل جونسي لأنه قال إنه سيشق وجهه. قال جيمس إنه لن يخبر أمي لو توقفت عن الأمر هنا والآن.

مارست الجنس مع جونسي مرة أخرى وبعد ذلك قضيت بقية الأسبوعين مصابة بالغثيان إلى أقصى حد.

اكتشفت أمي دفتر يومياتي وسلوكي المخيب للآمال في سبتمبر 1992. ضربتني ثلاث مرات حول رأسي بعنقود خواتمها. لماذا اعتقدتُ للحظة أنها ستحيطني بذراعيها وتقول: «لماذا لم تخبريني؟» لكنها بدلا من ذلك قالت: «لم أفقد عذريتي حتى بلغت

التاسعة عشر» للمرة الأولى. وكانت المرة الأولى أيضا هي الأسوأ. بعد أسبوعين من المشادات الكلامية من التاسعة إلى الخامسة والتفكير من السادسة إلى الثامنة، طلبت من جونسي أن يجمع بعض المال ويلحق بالحافلة معي. وفعل ذلك.

قضينا ليلتنا الأولى على الأرض أمام سخان داخل حمَّام للسيدات في محطة أوتوبيس مهجورة خارج برمنجهام. كانت هناك لوحة إعلانات مضاءة أبقتني مستيقظة، بردانة ووحيدة، حتى مع الصحبة، قلقة لكن غاضبة بما يكفي لأن أجد مكانا مزعجا غريبا أرحم من بيتي. فكرت كيف وصلت إلى هناك. كيف يمكن للسعي من أجل الاهتمام والحوار الصحي أن يصبح صعبا هكذا، وما تنتهي إليه هو أكثر صخبا بكثير مما أردته في المقام الأول. كيف يمكن لخطأين أن يحطما دون قصد أسوار أريحا[18]. كيف يمكن لهذه الضجة المجنونة أن تصبح مملة إلى درجة تدفعك لركوب حافلة إلى كارديف والسفر متطفلا إلى ما وراءها. كنت قد أصبحت في غاية الارتباك، ولم أعد أذكر إن كنت أريد أن أتكلم أم أسمع. أردت فقط أن أتحرر من الجدران المحكمة، لكن ما حدث بالفعل كان العكس. أصبحت الجدران أكثر إحكاما.

قضينا وقتا في نُزُل شباب تابع لـ (جيش الخلاص) حيث كان

18- سور أريحا يعود تاريخه إلى عام 8000 ق.م ويعتبر أقدم سور حول مدينة يتم اكتشافه، وورد في سفر يشوع كيف استطاع بنو إسرائيل تدميره بالسير حوله لمدة سبعة أيام حاملين تابوت العهد وقاموا بالنفخ في الأبواق والصياح حتى تسقط الأسوار ويدخلوا المدينة.

كل ما علينا فعله للحصول على فراش ووجبة يوميا هو الإقرار بأننا مسيحيان. كل ليلة، كنا نعقد جلسة سمر وغناء أغنيات شعبية مع أشخاص أسكتلنديين كانوا أو آيرلنديين أو إنجليز، لكن أحدا منهم لم يبدِ أي سمات لكونه متدينا على نحو خاص. استطاع جونسي أن يصرف شيكين للإعانة الاجتماعية من بلدتنا، وبالتالي كان لدينا في الخميس التالي ما يكفي للحصول على تذكرتي أوتوبيس إلى مكان آخر. وكما ترشق دبوسا في خريطة عندما يمكنك رؤية القليل وأنت معصوب العينين، وقفنا عند الأوتوبيس ننظر إلى الوجهات والأسعار على لوحة الإعلانات مرة بعد مرة حتى قلت: «نعم، تلك هي.»

استيقظنا على عصابة من الشبان يجرون قربنا حاملين قطعا من أجهزة الحاسوب. كان ذلك في الصباح الباكر في مدخل بيت في شارع بهت اسمه مع السنين. سرنا جائعين نراقب عاهرة تُضرب بمضرب بيسبول على يد رجل صاحب سيارة بي إم دبليو في رادفورد؛ أشهر أحياء الدعارة في نوتينجهامشير بسوء السمعة. وتعثرنا في الرابعة صباحا بمقهى اسمه (بريتانيا). مفتوح طوال الأربع والعشرين ساعة ويحرسه جاس؛ مدمن على الكذب حاولت يائسة أن أقترب منه خلال الشهور التي قضيتها في شقته. قدم لنا إفطارا ضخما، وأخذنا إلى بيته وتركني أنام في فراشه. تعرفت على أفضل الحانات والملاهي على يد رجل أحرق خصلات شعره الزرقاء المضفورة ضفائر صغيرة بينما

كان يطهو، وارتدى طوقا حول شعره ليخفي الدمار، الأمر الذي جعلني أستنيم إلى أمان كان في جوهره خطيرا، ومع ذلك كانت هذه نسخة «الحرية. هذا. سوف. نحصل» أكثر تماسكا من النسخة التي قدمتها أمي.

كانت كاميلا فتاة سويدية في الرابعة والعشرين من عمرها لها أسنان علوية بارزة ورأس مكسو بشعر أحمر وأرجواني. طلبت مني أن أتكلم فقط لتستمع إلى صوتي، ظنا منها أن اللهجة الويلزية شبيهة باللهجة الدانمركية وتذكرها بوطنها الإسكندنافي. كانت تنام أحيانا على الأرض في شقة جاس وتبحث عن رجل تتزوجه كي تقيم في بريطانيا بشكل شرعي، وكنت أتمنى بلهفة أن تختار جونسي.

وكان سام جلام يعيش في الطابق الأرضي ويرتدي حذاء رعاة بقر عالي الرقبة لونه وردي، حتى وهو ذاهب إلى العمل، إلى أن سُرق منه ذات ليلة وهو نائم على سلالم ملهى. ساعدني في مسألة القراءة وكان يعتذر لي لأنه لا يملك إلا يوميات وسيناريوهات (ريد دوارف)[19]. علمني كيف أستخدم علاَّم الكتاب وكيف لا أُهلك ظهر الكتاب، لأن مجموعته كانت نادرة وثمينة.

كان البيت الذي احتللناه والذي كانوا يعيشون فيه مملوكا

19- ريد دوارف (القزم الأحمر) مسلسل كوميديا موقف وخيال علمي بريطاني. عُرض على قناة BBC2 من عام 1988 إلى 1999 ولقي رواجًا و نجاحًا كبيرًا.

لرجل إيطالي اسمه دومينيك. وكان يمتلك أيضا «شركة بريتانيا للمقاهي وسيارات الأجرة» وخلال ثلاثة أسابيع منحني أنا وجونسي عملا كطباخ وكغاسلة أطباق/عاملة شاي. إبان ذلك كنا قد اكتشفنا ملهى (روك سيتي) وقضينا أغلب وقتنا هناك نحتال للحصول على تذاكر والتسلل إلى الكواليس مع كاميلا (التي كانت ذات موهبة في هذا النوع من الأشياء) من أجل فرق موسيقية مثل (جو جو هاوندز) و(ذي كويربويز) و(جوار).

كان منظف النوافذ المقيم في نوتنجهام اسمه (ماد) وكان أيضا ينظف داخل (روك سيتي). قضينا أنا وكاميلا ليالي في مخزن (ماد) نتطلع إلى صوره مع أليس كوبر وفرقته (سيك بويز) ونلتقي فرقا دعاها لشراب أو سيجارة. كنت أنام طوال النهار، وأتسول للحصول على رسوم الدخول مع كاميلا، وأرقص حتى الرابعة، وأعبر الطريق إلى المقهى، وأعمل حتى التاسعة وأذهب إلى الفراش من جديد. ذات مرة، بعد الانتهاء من عرض موسيقي، دخل أعضاء فرقة (أوجلي كيد جو) لتناول شريحة من اللحم. طلب مني عازف الجيتار في فرقة (دانزيج) فنجانا من القهوة وسرق أعضاء فريق (ستار ستار) بعض البسكويت.

ثَقب للأنف هنا وقميص ماركة (كونكريت جِربِل) هناك، اكتشفت فقط كم كنت مازلت تعيسة عندما بدأت أبكي وأنا أمارس جنسا جافا مؤلما يمخض المعدة مع جونسي، لأني لم

أتمكن من تجنب هذا ولو مرة واحدة. لأنه هذه المرة كانت كل الأعذار قد تركتني مكشوفة دون درع واق.

ولا حتى عندما تم إخلاؤنا جميعا من المقهى بسبب قنبلة زُرعت في الحانة المجاورة لنا شعرت بكل هذا الانكشاف دون حماية.

لقد هربت من خزان قمع فقط بالدخول إلى خزان شخص آخر.

لقد غادرت في أكتوبر، وقد أضيئت أنوار الكريسماس في نوتنجهام. تساءلت إن كانت أمي قد أدركت ما كان لديها بالضبط، محبوسا في حجرة النوم بالطابق العلوي، الآن بعد أن فقدته؛ وتذكرت بعض أصدقاء المدرسة الذين طلبوا مني الانتظار حتى الصيف في حالة اضطراري للمبيت في الخارج. لكني تنازلت عن رحلة قصيرة إلى قسم شرطة رادفورد لكي أذهب وأرى فرقة موسيقية تلعب فقط أغاني فرقة (بلوندي)[20] في مسرح (رويال كونسيرت هول) مع سام.

ذات يوم دق محققان الباب ومعهما صورة لي. أجابهما جونسي وقال إنه لا يستطيع التعرف عليها، تلك الفتاة ذات

20- بلوندي هي فرقة روك أمريكية شارك في تأسيسها المغنية ديبي هاري وعازف الجيتار كريس شتاين. كانت الفرقة رائدة في البانك الأمريكي ثم مشهد الموجة الجديد لمنتصف سبعينيات القرن الماضي في نيويورك.

الشعر الأحمر المرتدية تيشيرت باتمان على مركب في جزيرة مان. غادرا وقال إننا سننتقل إلى لندن قريبا، ثم عاد الجميع إلى النوم. «ألا ينبغي أن نمضي الآن؟» قلت في جو الغرفة الناعس. كانا قد تتبعانا من خلال إعانات جونسي الاجتماعية التي كان مازال يصرف منها. ثم عدت إلى النوم أيضا دون مبالاة بكل شيء. عاد الشرطيان بعد ساعة ومعهما امرأة هذه المرة، فتشوا البيت ومنحوني بالكاد وقتا لتبادل العناوين مع كاميلا. تبعتني المرأة إلى الحمَّام وراقبتني وأنا أتبول، خشية أن أهرب من النافذة. أخذوني أنا وجونسي إلى سيارتين منفصلتين؛ جاءت المرأة معي وقالت: «لا تزعجي نفسك بالجري وأنت مرتدية هذا الحذاء (الدكتور مارتنز) الثقيل، لن تصلي إلى أي مكان.»

«ألهذا تصرفونه للسجناء الآن؟» سألتها. ولم تعرف أتضحك أم تعبس، ولا أنا عرفت.

كان من المفترض أن يعيدونا إلى ويلز في سيارتين منفصلتين لكني أظن أن أفراد بوليس نوتنجهام أخطأوا الحكم عليّ وبدافع الشفقة سألونا إن كنا نود السفر معا. قال جونسي بلى وهززت كتفيّ. «لا بأس إذًا، لكن لا يمكنك أن تخبري والديك يا ريبيكا.»

«والديك». دار بخلدي أن هذه كلمة غريبة وبعد ذلك جلست فارغة وخاوية، وذراع جونسي المكبل يحاول أن يشق طريقه

إلى ذراعي، طوال الرحلة. في لحظة ما سأل إن كان يمكن فك أصفاده وأتذكر أني فكرت: لا تذل نفسك أكثر من ذلك. ولم أفكر مرة أخرى حتى رأيت لوحة «مرحبا بكم في رونذا» على طريق بولش. أنا واثقة أن السائق الشرطي أبطأ السرعة ونحن نمر بها، ليطيل من تعاستي. على الأقل كان هذا رد فعل واحد شجاع ألقى به عقلي إلى عينيّ المرتخيتين، لكن نتيجة امتزاجه ببقية ردود الأفعال، كان من المستحيل فك شفرته. وبعد ذلك أنهيت حيرتي بالتفكير في أني سأكون أشبه بمحقق أحمق، إذا لم أستطع حتى أن أحدد نوع مشاعري.

عندما وقفت في ممر قسم شرطة تون بنترا، نفس الممر الذي وقفت فيه سابقا ذلك العام، قابلت الرجل المسؤول عن حالتي. أمسك بصورة لي، وربت على أنفي، ورفع الصورة أعلى وقال: «كنت تبدين أفضل دون هذا المعدن... أمك في الحجرة المجاورة، وهي ليست سعيدة إطلاقا.»

9

كنا أنا وأخي نحب البراح. بعد سنوات مكدسة بأطقم من الصيني الأزرق والأبيض، كان كلانا يريد مساحة، مساحة للكلام دون الاصطدام بشيء. كان لجيمس ذوق جيد في الأثاث، لكن بيته الآن قبيح نتيجة رهاب الأماكن الضيقة، بالأفكار والصمت المخيم الثقيل. بالندم، والارتياح، والغضب، والقرف، والفضول، والبحث عن الحقيقة. كان لدى كل واحد شيء ليقوله لكنه كان أكثر خوفا من أن يقوله. تحدثت أمي فقط لتخبرني أنها انتقلت إلى شقة في قرية (يستراد). استقبلتني داخل قسم الشرطة بالأحضان وانتظرت حتى خرجنا لتستخدم ظهر يديها. لمرة واحدة، طوال الثلاثين دقيقة التي أجبرتني أمي ومعها أخي على البقاء محترسة بلا شيء غير التنهدات، كانت الحياة العائلية أقرب من أي لحظة سابقة. وبعد ذلك أخرجت أمي قطعة من الورق. «يومياتي العزيزة» هذا هو المقتطف الوحيد الناجي من النار التي أشعلتها قبل أن أرحل وحمل القصة كاملة. حقائق مرة مخربشة على ورقة كراسة أتلفها الدخان كانت لديها القدرة على تغيير كل شيء... قليلا. تقول: «هل هذا صحيح؟» ويكأني استهلكت الوقت لأكتب شيئا وحشيا كهذا في سن العاشرة، بلا سبب على

الإطلاق. أخذت نفسا، نفسا عميقا مشبعا ورفعت رأسي: «نعم... صحيح.» كان يمكن لزهوي أن يوحي أني شفيت ذاتيا بشكل تام. بدا الأمر أقرب إلى الانتقام في حد ذاته، وأنا أعلن أني كنت أعيش في بيت الشياطين لأربعة أعوام بينما كانوا هم يقضون عطلاتهم ويشربون ويضحكون غافلين. قالت: «لماذا لم تخبريني؟»

تذكرني كلمة «الطفولة» بالزيف. أشعر كأني لم أكن طفلة قط. عندما كنت صغيرة جدا، كنت أشتم وأسب بذلك الصوت الأريب الساخر لشخص قضى وقتا أكثر من اللازم في صحبة أصدقاء أخي المراهقين. وعندما كنت أشب عن الطوق، وتنمو لي حلمتان ورديتان وزغب كزغب الخوخ على ساقيّ سيتوجب حلقه بعد قليل، كنت أفكر كرجل عجوز. شاهدت حياتي بعينين كليلتين، وهي تختفي دون ريب، وانتظرت منها أن تنتهي باذلة أقل الجهود لإطالتها. وعندما كانت الطفلة أخيرا تستحيل إلى فتاة ينبغي أن تجرب وضع الماكياج، كنت أسير في شوارع المدينة في الثالثة صباحا.

لو حدث وكنت طفلة في أي وقت، لم أكن طفلة لوقت طويل، وفجأة عندما قررت أني كنت دائما كبيرة راشدة، أراد الجميع إعادة طفولتي إليّ.

لم يسألني أحد قط إن كان ينبغي أن آخذ مسائل الإساءة للأطفال إلى المحكمة. لم يسألني أحد قط إن كنت أود أن أتهم

جونسي بالاختطاف. رأى أحدهم من المناسب أن يجيب هذه الأسئلة عني: ففي النهاية كنت مازلت في الرابعة عشر من عمري فقط، وسرعان ما حوصرت بنساء الشرطة، وأطباء الشرطة، وممرضات الشرطة، والإخصائيين الاجتماعيين للشرطة، والمحامين والقضاة.

بدأ الأمر في مركز اجتماعي على أطراف بلدة بونتيبريد. ذلك هو المكان الذي ستجرى مقابلتي فيه مقابلة شخصية، تلك المقابلة التي ستسَجل ويعاد تشغيلها في قاعة المحكمة لتقليل وقت حضوري في المحاكمة الفعلية. كان قماش التنجيد قرنفليا ووردیا بخطوط زرقاء وأرجوانية. وكانت الأرضية مفروشة بلعب أطفال طرية. الطريقة التي جعلتني بها أمي أرتدي ملابسي كان يمكن أن تجعلني أبدو وكأني أنتمي إلى المكان، لكن من الواضح أني لم أشعر بذلك. تحت قميص آديداس ثقيل بلون الكرز، وأنف وأذنين بلا أقراط، وضفيرة؛ تساءلت ما الفارق اللعين الذي سيحدثه الإخصائيون الاجتماعيون بسؤالي إن كنت أعرف ما يعنيه «التراضي». ما هو الجنس الفموي؟ أي جزء لمس بالضبط؟ أين بالضبط ذهب السائل؟ هل عرف أني لم أبدأ دورتي الشهرية؟ حاولت الإجابة على الأسئلة بأقل قدر من الكلام. أجبت الأسئلة الخاصة بجونسي بكلمات مفردة متغطرسة. لم أرد أن أكون في هذا المكان، لم يكن عليّ أن أكون فيه، لذا طوال الوقت الذي كنت أحدق فيه في كاميرا الفيديو وأمي تراقب على شاشة

في الطابق العلوي، كنت أتساءل لماذا أنا هنا بحق الجحيم.

بعد ذلك أرقدني طبيب وممرضة، عارية مسطحة على لوح، وضما قدميّ معا لكن ركبتيّ كانتا متباعدتين. نخساني بأدوات معدنية عديدة وتحدثا عن جسدي كما لو لم يكن يضم عقلا. «تبدو لي أشبه بطية جلد.»

«ربما ينبغي أن نفحصها على أي حال.»

«لكنها لم تذكر شيئا عن الجنس الشرجي.»

«إممم، دعيها.»

تحدثا إلى أمي قبل أن يُسمح لي بمغادرة الحجرة ذات اللوح. قابلتني عند الباب، وأخذت نفسا عميقا وقالت: «طيب، أنت لست عذراء، نعرف إلى هذا الحد.»

عندما أتى يوم ظهوري في محكمة كارديف كراون، كنا أنا وأمي مقيمتين في بيت مارتن. فوتنا قطارنا لأني أصررت على مشاهدة العشر دقائق الكاملة لأغنية فريق جنز آن روزز **(November Rain)** على قناة إم تي ڤي، بينما كان ينبغي أن نغادر البيت بالفعل. عندما وصلنا هناك أخذنا شرطي عبر الباب الخلفي إلى المقصف. حتى ذلك الوقت كانت أمي قد حاولت تهدئتي مرارا وتكرارا بقولها: «لا تقلقي، سيذهب إلى الدرك الأسفل.» اشترت لي شطيرة لحم خنزير مقدد، لكني كنت قد

أصبحت نباتية بالفعل ولم أستطع أن آكل على أي حال.

لأني كنت طفلة، كنت سأدلي بشهادتي عبر رابط فيديو، حتى لا يخيفني وجه المتهم. وكان هذا يعني أن أجلس في حجرة في ظهر المحكمة حيث يمكنني فقط أن أرى القاضي والمحاميين. ومع ذلك، يمكن لهيئة المحلفين والمتهم وجمهور الحاضرين أن يروني. كانت حجرتي تشبه كثيرا تلك الحجرة في المركز الاجتماعي، ملأى بلعب الأطفال المحشوة بمادة لينة. وجلست إلى جانبي امرأة بعباءة سوداء في حالة أردت ماء أو شعرت بالغثيان أو شيء من هذا القبيل. كانت مفرطة الوزن، ولها شعر أحمر كبير.

خاطبني القاضي، متسائلا إن كنت على ما يرام ومستعدة. قلت: «أيوه». ظل يكرر السؤال وظللت أجيبه: «أيوه» حتى قال محامي المتهم: «تقول 'أيوه' يا سيدي. لو قلتِ 'نعم'..» ونظر إلى شاشتي، «قد يفهمك القاضي.»

وبدأ الاستجواب. «هل تذكرين الفيديو الذي سجلتيه يا ريبيكا؟»

"نعم."

"قلتِ خلال تلك المقابلة إن زوج أمك اغتصبك، بمتوسط مرتين في الأسبوع، هل تذكرين قول هذا؟"

"نعم."

"بمتوسط مرتين في الأسبوع لفترة ثلاث سنوات، هل هذا صحيح؟"

"نعم."

"إذًا أنت تخبريننا أن هذا الرجل اغتصبك ثلاثمائة مرة في المتوسط؟"

"نعم، إذا كان هذا هو ناتج المسألة.»

قاطع القاضي المحكمة ليبلغ المحامين بضرورة خلع شعورهم المستعارة، لأنها يمكن أحيانا أن تخيف الشهود الأطفال.

خلع المحامي الممثل للمتهم شعره المستعار ليكشف عن شعر زنجبيلي اللون جعل عينيه تبدوان أكثر سوادا واستمر في خط استجوابه الفظيع.

"تقولين في الفيديو الخاص بك، أنه في أول مرة اغتصبك فيها زوج أمك أمسك بك وخلع ثيابك، هل تذكرين هذا؟"

"نعم."

"هل يمكنك شرح "كيف" أمسك بك وخلع عنك ثيابك؟"

"أمسك بي وخلع عني ثيابي."

”نعم، كيف فعل هذا؟“

حاولت جاهدة. وبعد ذلك: «من الصعب أن تشرح كيف يخلع أحدهم ثيابك. أمسك بي وبعدها، كان سروالي مخلوعا.»

”شكرا سيدي، هذا كل شيء الآن.“

كان رجال الشرطة قد أخبروني أن محامي براين ويليامز سيحاول ترويعي. وكل ما تمخض عنه الأمر هو حقيقة أن كل الأدلة المادية التي كان زوج أمي قد تركها بداخلي محتها الأدلة المادية التي تركها جونسي بداخلي. كل الملاحقة القضائية التي كان يمكن أن تحدث، هي ما قلته ذلك اليوم، أو بالأحرى ما جعلني المحامون أقوله. كانت المرأة التي تمثلني تعمل فقط من خلف ملف القضية لأنه كان غير مسموح لي بمقابلتها، لكن زوج أمي كان بإمكانه أن يجري مناقشات مطولة مع رجله الزنجبيلي ذي العينين السوداوين. رجل الشرطة الذي قبض على زوج أمي في نادٍ للعمال في (بينكايراي)، ثم استجوبه في مدينة أبردير، وصفه بأنه مذنب على الفور؛ لأنه كان يجيب الأسئلة بثقة حتى يأتي ذكر اسم ”ريبيكا“، وعند ذلك كان يعجز عن الكلام ويرتعش. ومع ذلك، لم يكن بمقدور هذا الشرطي -مثلي- إلا أن يجلس ويراقب مأساتي يلقى بها إلى هيئة محلفين ليحللوا ويفترضوا، وكأنها كانت مسألة رياضيات بسيطة.

”هل تعتقدين أن أمك تغار من زوج أمك؟“ بدأ من جديد.

”لا.“ ضحكت تقريبا. كان بمقدوري أن أبدأ في تقديم كل الأسباب وراء هذا، لكنها كانت جميعا أوضح من أن تقال. لماذا ستغار أمي منه؟

”أعتقد أنها كذلك، لو ترين، أعتقد أن أمك تغار من زوج أمك لاستمراره في حياته وعثوره على صديقة جديدة.“

عند هذا الحد عجزت عن الكلام، مفكرة، متريثة، أمي هي التي طلبت الطلاق، هي التي تطبخ شرائح اللحم لرجل جديد وتخطط لأجازة قادمة في جزيرة تنريفي معه.

”هل طلبت منك أمك أن تقولي هذا؟ لقد اختلقت هذه القصة لأنها تغار، أليس هذا صحيحا يا ريبيكا؟“

”لا..“ أصيح.

”لا يوجد أي دليل مادي متاح لذا تعتقد أمك أنها فرصة مثالية لك كي تقولي أشياء كهذه لكي تسجن زوج أمك.“

”لا..“ أصيح قافزة من مقعدي. المرأة ذات الشعر تمسك بذراعي لكني لا ألاحظ لأني غاضبة بشدة.

”أنا على حق، أليس كذلك يا ريبيكا؟“

"لا."

"نعم أنا على حق، على حق."

"لا، لا، لا، لا." تنفجر دموعي، وينتهي الأمر. لقد أدليت بشهادتي. تمسك المرأة ذات الشعر بي وتدفع وجهي في صدرها في نوع من عناق الدببة. تبكي أيضا وتقول: «أعلم ما تمرين به، مر به ابني أيضا.» أمي عند الباب مع شرطي آخر يقول: «كنت جيدة جدا" وكأن الأمر كان اختبارا للتمثيل تفوقت فيه. «كان قاسيا، لكنك أبليت بلاء حسنا قدر ما استطعت.»

في المقصف مرة أخرى لم أستطع أن آكل. شربت ماء وتُقت إلى سيجارة. لم أتمكن من طلب واحدة من أمي لأنه لم تكن لديها أي فكرة أني أدخن. بدا من الغباء ألا أكشف لها مثل هذا الأمر التافه، وهي تعرف الآن أني فقدت عذريتي وقضيت وقتا كثيرا في الملاهي الليلية في بيرمنجهام ونوتنجهام لأن شهودا من تلك الأماكن أخبروا الشرطة بذلك. لكني اعتدت أن أكون فتاة صالحة تعود إلى البيت من دروس البيولوجيا المستوى الأول لتقول: «لو رأيتم الفيديو الذي رأيته اليوم، لألقيتم عصوات السرطان تلك بعيدا.» كان أخي يقول أشياء شبيهة قبل أن أتمكن من المشي والآن في طريقه لأن يدخن ثلاثين سيجارة في اليوم. ثمة أثر من احترام تبقى لديّ تجاه أمي. نوع من الاحترام المتمنع الناشئ عن الخوف، وأظن أنه في العمق كنت أريد أن تظل أمي تحبني دون

أن أعترف بذلك. وكان من الممكن لطلب سيجارة منها أن يطيح بآخر زجاجة خضراء من فوق الجدار.

لم أشعر قط بكل هذا الإحباط الذي شعرت به وأنا جالسة في المقصف محاطة بالشرطة، وأمي تمسك يديّ المرتعشتين. كان إحساسا مهينا لأني لم أشعر بذلك الشعور لوقت طويل، على الأقل ليس إحباطا بهذه القوة، ربما كان نوعا طويلا عتيقا موهنا من الإحباط حاول أن يقتلني ببطء، لكني الآن أريد أن أفقأ عينيّ الرجل الزنجبيلي السوداوين. كيف يجرؤ على وصفي بالكاذبة؟ كيف يجرؤ على أن يحيل الشيء الوحيد الخاص بي فعلا إلى اتهامات باطلة عن أمي؟ عشت عبر البؤس الذي سببه عميله لي وحدي، ولم يعرف أحد آخر. جرحني ولن تلتئم الندوب. ثم يأتي ذلك المحامي ويخبرني أنا وبقية العالم أنها قصة اختلقناها أنا وأمي لأننا نغار من هذا المغتصب وصديقته الجديدة. وأنا أعرف أنها ليست كذلك. لقد عانيت أكثر من اللازم كي أعرف أنها ليست كذلك. حياتي المليئة بالهوس بالذات واحتقار الذات وتدمير الذات تثبت أنها ليست كذلك، لكن في ساحة للقانون يستطيع الرجل الزنجبيلي الذي سخر من طريقتي في قول «نعم» أن يثبت أنها كذلك، بإنكار الطفلة الموجودة على الشاشة والتوجه بخطة دفاع طائشة في اللحظة الأخيرة إلى أناس لم يضطروا للعيش خمس سنوات مع زوج أمي.

أمي تغار؟ ألا يفهم هؤلاء الناس أني لم أرد قط أن أخبر أمي لأني لم أرد لها أن تشعر كما شعرت؟ وكأن ابنتها كانت مجرد قطعة قذرة من اللحم بها ثلاثة ثقوب. ألا يعرفون أني لا أبالي إن عاش المتهم أم مات أم ذهب إلى السجن؟ ألا يفهمون أني لم أرد أن أكون هنا أحكي للغرباء كيف مزق زوج أمي ذلك القميص أو كيف انكسر ترباس الحمَّام تلك المرة؟ ألا يعرفون أن كل ما أردت فعله هو أن أنسى ما لا يمكن نسيانه؟ ألا يعرفون أن كل ما أردت فعله هو أن أتخلص من جلدي القذر وأنسل خارجة من نفسي؟

في طريقنا إلى المحطة سرنا أنا وأمي على الرصيف المقابل لزوج أمي وصديقته الجديدة. شعرت أمي بالحنق البالغ لرؤيته يسير حرا، وفي نفس الشارع مثلنا. تمتمت لنفسها وحاولت السير أسرع، لكني كنت بطيئة، كما لو أن قدميّ مكبلتان بالأغلال. كنت بطيئة كما لو أن أي طاقة بقيت لديّ قد استُنزفت. استخدمنا نفس المحطة التي استخدمها المتهم. اضطررنا إلى ذلك لأنه لم تكن هناك غير محطة واحدة. اقتربنا منه جدا في تطاحن وحركة المسافرين من المدينة إلى الوادي حتى أنني استطعت في لحظة ما أن أنظر في عينيّ صديقته، نظرة كليلة عقيمة كان يمكن أن تعني أي شيء. كان يمكن أن تعني: «احترسي من أجل أطفالك» أو «أود أن أقتل صديقك» أو «أنت أيتها العاهرة الحزينة الغبية، أتساءل إن كان سينتهي بك الأمر وأنت تسرقين النبتات من مدرسة أطفالك.» لكن ما كانت تقصد النظرة أن تقوله للأسف

كان «أنا لا أرتدي ملابسي هكذا عادةً».

وصل القطاران، واحد إلى أبيردير والثاني إلى تروركي. واحد في طريقه إلى حانة في بينكايراي حيث تقدَّم الحرية في قدح نصف لتر، والآخر يعود إلى البيت، إلى السجن.

في اليوم التالي ستقف أمي كشاهدة وتتحدث عن زجاجة زيت أطفال مشطورة، عن صمتي وموضوعات أخرى عديدة لم يتضح لها معنى إلا في الليلة التي وصلت فيها إلى البيت من نوتنجهام. بعد شهادتها، وبعد أن أدلى مجموعة من شهود المتهم (الذين قالت أمي إنها لم ترهم قط في حياتها) بشهاداتهم، ستخرج هيئة المحلفين لمدة ثلاث ساعات قبل أن يعودوا وينطقوا بأن براين ويليامز ليس مذنبا ولا مدانا بتهمة واحدة من تهم الاغتصاب أو الاعتداء الفاحش، وهكذا قد اغتصبني من جديد.

10

الشيء الوحيد الذي اعتقدت أني ضحيت به عندما قفزت داخل كابينة سائق شاحنة تحمل إبرا ملوثة بالإيدز وسيقانا مجمدة إلى محرقة في بيرمنجهام، كان هو الشيء الوحيد الذي شعرت لأجله بالامتنان عند العودة إلى أغلال رونذا المؤسسية الغبية. عقدت ربطة عنقي ذات اللون البنفسجي الفاتح ودخلت فصل فينسينت بيدج للغة الإنجليزية بينما كانت نسخة من ماكبث تُقرأ وتتردد سطورها في المكان، وأنفي يرتعش في توتر بحثا عن سلوان. سأنهي شهادة الثانوية العامة وأدهش أسرتي بتسع علامات اجتياز. سار بيدج على أطراف أصابعه حتى مكتبي بكومة من نسخ الخطب السياسية. كانت خطبة مارتن لوثر كنج على رأسها. وضعها وهمس بلطف: «مرحبا بعودتك.»

اندهشت قليلا من اختيار المواد العليم الذي قمت به برأس باهت فارغ. لم أكن قد لاحظت من قبل قط ما القسم الذي كنت أجلس فيه أو من كان يُدرس ماذا؛ كنت ببساطة أراقب الطيور من خلف الزجاج، طائرة وحرة. كنت قد اخترت الرسم، وكانت اللغة الإنجليزية إجبارية، تذكرت هذين، وقمت بمجهود واعٍ للاستمرار

في رسم اسكتشات لأواني الملح والفلفل في أي عشر دقائق زائدة لديّ في المقهى، لكن عندئذ اكتشفت أني كنت آخذ لغة فرنسية ويمكنني إجراء القليل من المحادثة بها. وبعد ذلك وجدت نفسي في المبنى 6 أبدأ دراسات الحاسوب وإدارة الأعمال، في حالة فشل مستقبلي المهني كفنانة أو شاعرة أو نجمة روك أو رسامة وشم واضطراري لفتح مشرب لتقديم شطائر نباتية، أو أن أصبح مساعدة شخصية أو حتى أقل من ذلك، سكرتيرة.

تجولت مرتدية زيي المدرسي الأسود الذي كان ينبغي أن يكون كحليا، وربطة عنقي السوداء التي كان ينبغي أن تكون بنفسجية فاتحة وزرقاء وصفراء، لكن كل خيوطها تنسلت منها. وأعدت وضع أقراط أنفي.

كانت جوان وجولين هما صديقتاي. لم أستطع تذكر وجودهما أصلا من قبل ولا أذكر كيف جاءتا أصلا إلى هناك، لكن على حين غرة صفعتني ضربة وعي سارة وكأني كنت أبحث طوال حياتي عن إجابة سؤال في كلمات متقاطعة ووجدتها أخيرا. كنت جالسة في المقصف أتشارك نسخة من مجلة (كرانج)[21] مع فتاتين وأناقش كافة التفاصيل الخاصة بألبوم فرقة سكيد روو الجديد معهما وكأني أعرفهما منذ روضة الأطفال؛ وبالطبع لم يكن هذا صحيحا؛ لأني لو كنت أعرفهما من قبل لانجرفتا بعيدا قبل ذاك.

21- مجلة Kerrang أسبوعية بريطانية مكرسة لموسيقى الروك والموسيقى.

لم تكن محادثتنا رسمية، في الحقيقة كانت شخصية إلى درجة كبيرة وقفزت خارج ذاتي للحظة لأرى إن كانت تلك هي أنا بالفعل التي تستمتع بالصحبة، وبدا ذلك جميلا جدا وكأن هاتين الفتاتين قد تمكنتا من تجاوز نصف القُطر بطول ذراع الذي كنت أبقيه وعليه علامة «للتعارف فقط». وبدا جميلا جدا كأني لم أعر الأمر أي اهتمام وكنت سعيدة إلى حد كبير بالسماح لهما بتجاوزه.

شعرت أني أصغر كثيرا، باللدهشة، من الذهاب إلى الحانات وكنا أكبر كثيرا من الذهاب إلى مراكز الشباب ولن يجري تقبلنا اجتماعيا كذلك، بملابسنا الجلدية ووشومنا المصنوعة في البيت وصبغة شعرنا الأسود وسلاسل أنوفنا. لذا كنا في الأغلب نسير ونسير ونسير عبر تروركي، وكأن ليس لدينا مكانا نذهب إليه، وهو ما كان صحيحا بالطبع. وكانت الإهانات من الفتيات الشقراوات ذوات الثياب البرتقالية والخضراء الزاهية تسقط مرتدة عنا كما يسقط الماء عن ظهر بطة، لأننا كنا نعرف أكثر مما يمكن لهن على الإطلاق أننا نمتلك شيئا خاصا لا يفهمه أي شخص آخر؛ لذا قررنا أننا سنكون أفضل الصديقات إلى الأبد.

كان اختبار التقدير المشترك يلوح من بعيد فقط عندما كنا نناقش أمر الفتى في آخر الشارع. في النهاية ستنام واحدة منا مع الشاب طويل الشعر من شارع جوان وجولين وكل واحدة منا مقتنعة أنها ستكون تلك الفتاة. لكن بعد شهور من التجاهل

أدركت أن هذا الفتى لا يريد أيا منا، وأصبحت تصوراتي الكيوبيدية مضجرة إلى حد كبير. ولا بد أن تصورات جوان وجولين قد ماتت في نفس الوقت تقريبا لأن الفتى انتقل من الشارع ذات يوم ولم يكلف أحد نفسه عناء ذكر هذا.

تساءلت كثيرا كيف كانت الصلة التي ربطت بين جوان وجولين قبل أن تجداني، كيف بدتا وهما تسيران في الشارع، واحدة طولها ستة أقدام والأخرى أربعة أقدام، دوني أنا متوسطة الحجم لأخلق التوازن بينهما. تساءلت كيف كانت جوان قارئة شكسبير وسريعة النضج تضحك على كوميديا جولين المستمدة من ريفز ومورتيمر.[22] تساءلت كيف لجولين، التي اختارت الطبخ كمادة أساسية ببساطة لأنها لم تتمكن من مواجهة أي شيء أكثر ذهنية، أن تتأقلم مع جدية جوان المستمرة بدوني. كيف تمكنت هاتان الفتاتان أصلا من الحديث دون مرونة وفهم شخص مثلي يقف بينهما؟

بدأت أشعر أنه ربما لديّ شيء ما أسهم به نحو شخص ما، في مكان ما. بدأت أشعر وكأني أحظى بتقدير من شخص ما، وكأن شخصا ما ربما كان يريد وجودي حوله بالفعل. انتميت إلى مكان ما لأول مرة. انتميت مع صديقتيّ، هاتان الصديقتان

22- الإشارة إلى الممثلين الكوميديين الإنجليزيين روبرت رينويك مورتيمر وفيك ريفز اللذين شكلا ثنائيا باسم فيك وبوب.

الحقيقيتان اللتان جاءتا إليّ كملاكين حارسين وعلمتاني كيف أكون مراهقة. وبدأت أشعر ماذا يكون عليه الشعور بالتقدير، وأن تكون ممتنا لهؤلاء الناس. عرفت كيف كان الشعور عندئذ، أن تريد العيش وأن تريد العيش مع كائنات بشرية أخرى.

في الوقت نفسه، كان انعدام التواصل في «قصر» أمي الصغير شاسعا. (كانت تسمي شقتها بالقصر الصغير لأن مارتن زينها بسجاد فاخر ودهان خوخي وعنبري وظلال من ورق الحائط). كنت أسير في أرجاء المكان بحرص، محاولة ألا أكون مسموعة. كنت أطلب الماء وأطلب استخدام الحمَّام؛ وعندما لم يكن هناك أحد لسؤاله كنت أتسلل، غير راغبة في أن يمسك بي أحد دون أن أسأل. شعرت وكأني طفلة مشردة تم إيداعها حديثا في بيت وصيّ حاضن، تخشى أن تقول الكلمات الخاطئة حتى لا يأتي للوصيّ انطباع سيء. أخبرتني أمي مرات عديدة أن البيت بيتي، لكنه لم يكن كذلك قط بطريقة ما. كان دائما «قصر أمي الصغير».

عندما أقامت أمي في بيت مارتن، ذهبت معها. من الواضح أنه لم يعد من الممكن الثقة بي حتى لا أهرب مرة أخرى. وكان بمقدوري أن أفعل ذلك لو أردت؛ لأننا عندما ذهبنا إلى بيت مارتن كانوا يشغلون قناة إم تي ڤـي وينطلقون بالسيارة إلى إحدى حانات وادي رونذا فاور كما لو أنه يمكن الثقة بي طالما

أن هذه القناة بعينها مفتوحة. وبدلا من ذلك كنت أشتري خليط خضروات من المحل الصيني في الجهة المقابلة، بعشرين بنسا من حصالة مارتن.

العيش في بيتين مرة واحدة يمكن أن يكون مشوشا جدا. فأنت لا تشعر أبدا أنك شخص كامل، وهو الشيء المشترك بيني وبين جوان التي كانت تنقذف باستمرار بين بيت أبيها في تروركي وبيت جديها وأمها في يستراد. كنت مرعوبة دائما من نسيان شيء ما هام أينما ذهبت، لذا كنت أتأكد من عدم نسياني شيئا عن طريق حمل حقيبة قماشية بها أشياء لم أكن لأحتاجها قط، في حالة إذا احتجت منها شيئا. وذات يوم حدث المحتوم. حزمت كل شيء احتجته من أجل الاختبار التجريبي لإدارة الأعمال في الثانوية العامة وأخذته معي إلى بيت مارتن، لأني كنت سأتحرك من هناك في الصباح التالي. استيقظت في الميعاد وأدركت أني تركت حذائي المدرسي في يستراد. وصلت متأخرة ساعتين ورسبت.

ذلك العام، اشترى مارتن بيتا لأمي في عيد ميلادها، في نفس الشارع الذي يقع فيه بيته. كانت سعيدة؛ لأنها لم تحب قط الجيران في يستراد، لكن بدا الأمر مضيعة للمال لا جدوى منها لأنها كانت فعليا تعيش معه على أي حال. وفي الحقيقة، طوال الوقت الذي كان البيت فيه ملكها لم تقض فيه إلا ليلة واحدة. لذا

بالفعل كان البيت ملكي، وملكي وحدي. تساءلت أحيانا إن كان هذا جزءا من الخطة، شراء بيت إضافي حتى لا يضطرا للعيش معي، كما لو أن علاقتي بأمي كانت كارثية إلى ذلك الحد، حتى أن صديقها على استعداد للاستغناء عن آلاف الجنيهات ليبقينا بعيدتين.

هندريفادوج قرية سكانها خمسة آلاف. وبدا أنه منذ إغلاق منجم (دير) هناك قبل أن أولد بسنوات لا أعلم عددها، أصبحت البطالة موضة أخذت وقتا أطول من اللازم حتى تنقرض. مثل سراويل التزلج، وقمصان التنس، الثياب التي تروجها الألعاب الرياضية الرائجة، لكنها تستمر قابلة للارتداء عندما تصبح اللعبة الرياضية بلا شعبية، ترتديها النساء متوسطات العمر اللاتي لم يذهبن للتزلج قط، أو تُعطى كإرث من الملابس المستعملة للأطفال الذين لم يشاهدوا مباراة تنس قط. مثل عائلات الطبقة الوسطى التي ترفض تحطيم التقاليد بأن يصبح جميع أفرادها أطباء الواحد تلو الآخر، تبع مراهقو هندريفادوج آباءهم إلى طابور الإعانة الحكومية، جاعلين منا أدنى درجة من الطبقة العاملة. جيلي، نتاج الآباء العاطلين والطلاق والفقر الصريح، حاول يائسا أن يجد الرضا في متعة القيادة المتهورة للسيارات المسروقة ومخدرات الفئة ب (التي كانت بالكاد في المتناول) وشرب نبيذ التفاح في الأزقة والجنس دون السن القانونية.

هندريفادوج ليست إلا منطقة صغيرة من وادي رونذا والبقية، مناطق تروركي وتريهيربرت وتونيباندي وتايلورزتاون، كانت تشبهها كثيرا. هؤلاء الذين كانت لديهم وظائف كان لديهم فقط عمل هامشي في مصنع أو محل. وسكانها البائسون آمنوا عن ضلالة أن لديهم سمعة حسنة بأنهم أناس ودودون جدا ومرحبون، لكن بعد قضاء قدر قليل من الوقت في مدن إنجليزية، بدأت أرى وادي رونذا وناسه على حقيقتهم. تبين إلى حد كبير أننا حفنة من المنافقين المنحدرين من أسلاف متقاربين والذين يسهبون جميعا في قول الهراء عن عيشهم في أفضل مكان في العالم، بينما لم نذهب قط إلى أي مكان آخر كي نعقد أي نوع من المقارنة. سيسألون عند عودتي: «أين كنتِ؟ ذهبتِ إلى لندن، أليس كذلك؟» وعند ذكر رادفورد أو مانسفيلد أو كانوك، سيكون ردهم: «وأين هذه إذًا؟ لم أسمع قط بشيء كهذا.» بالطبع لم تسمعي، لا أظن أنك عبرتِ في حياتك نهر سيفرن، أليس كذلك؟ بالطبع لا، كنتِ مشغولة طوال هذه السنوات، تسجلين حضورك وتتزوجين ابن الجيران وتُمضين اليوم، بطريقة ودية أم أن هذا فضول مني؟

شعرت بالخزي فجأة لكوني شخصا يغني «We'll keep a welcome in the hillsides"[23] وبعد ذلك يحرق بيت الشخص

23- أغنية فلكلورية ويلزية تعني: «سنظل مرحبين بكم في التلال»

الذي رحبنا به. شعرت بالخزي لكوني من أهل الكهف، امرأة كهف بلا عقل تضع على عينيها غمامتين. نعجة تصوت لصالح حزب العمل لأن جدودي كانوا يفعلون ذلك. نملة تتبع قبيلتها وهي تطوف في الظلام، تحت الحجر، غافلة عن أي نوع من الحياة في الخارج.

كانت الخطط قد وضعت قبل وقت طويل من وجودي بإغراق رونذا، بصب الماء وتغطية البيوت والغابات والاستمرار في الصب حتى يصل الماء إلى قمم الجبال المحيطة. الاستمرار في الصب حتى ينتهي كل الناس ويغدو الوادي بأكمله صهريجا واحدا كبيرا. يالها من فكرة رائعة لعينة! لم يتم تمرير هذه الخطط قط، لكن لو حدث ومرت، فلعل بعض الأبرياء كانوا سينجون من الجفاف، والناس الذين عاشوا ذات يوم في الوادي سينتقلون إلى مكان آخر ويتعرضون لصدمة ثقافية تدفعهم إلى فعل شيء آخر غير أن يكونوا أغناما تتناكح.

بدأت أنظر إلى مكان مولدي وترعرعي وصباي برؤية مزدوجة، رؤية تنظر من أعلى إلى أسفل وتخترق بنظرتها كل شخص وكل شيء لأني عرفت أني يمكن أن أكون أكبر، ورؤية أخرى على مستوى العين الناظرة كانت تتقبل هؤلاء الناس العاديين الرعاع؛ لأني كنت أخشى أن يكون هذا هو كل ما سأصبح عليه.

شعرت دائما أني أشبه نوعا ما آلان بينيت[24]، قلقة إن كان ينبغي أن أتحدث بطريقة لائقة أم أكون نفسي، عارفة تماما أن الفرق بين المدينة الكبيرة والريف مازال موجودا. وكما جعله لقاء والدته بالصدفة مع تي إس إليوت واعيا أصلا بنشأته في الطبقة العاملة، ستُذكرني زياراتي القصيرة إلى مدينة نوتنجهام ومركز تسوق بول رينج في بيرمنجهام ما بالإعاقة التي يمكن أن تكونها التنشئة في مكان مثل رونذا.

قبل أن يكون لديك الوقت للقلق بشأن ما سيعتقده الغرباء في لكنتك أو سلوكياتك الويلزية، أو ذكرياتك عن البيوت الغريبة المكدسة معا بجدران هزيلة إلى درجة أنه يمكنك سماع جيرانك وهم يمارسون الجنس في وضع الاستلقاء الممل السائد في رونذا، سيكون عليك أن تقلق بشأن ما اعتقده جيرانك في محاولتك الفرار منه. أردت على نحو يائس جدا أن أحطم أحلام أهل مدينتي الأم الذين لا يشعرون نحوك باحترام إلا إذا كففت عن القتال من أجل الأصالة والإبداع. لكن إذا برزت كإصبع إبهام ملتهب، وبدا أنك تؤدي على نحو أفضل من جارك فسيأتي أحدهم ويطرحك أرضا. كيف لك أن تكون المرء الذي يصنع التغيير في مكان لا يتغير فيه شيء أصلا إلا الأحذية؟

تدريجيا أصبحت ما يدعوه نظرائي من أبناء رونذا (غريبة

24- ممثل وكاتب مسرحي وسيناريست وكاتب يوميات إنجليزي من مواليد 1934.

الأطوار)، بحب تجاه الجريء والجميل (فقط حيث الجمال في عين الرائي). في الحقيقة، كان هذا شيئا يحدث طوال حياتي، حتى أصبحت فجأة فخورة بكوني أقلية. قضيت المراحل المبكرة من طفولتي مرعوبة من كوني نوعا ما غير بشرية؛ ثم فجأة أصبحت مرعوبة حد الموت من أن أكون عادية. أردت أن أدير رؤوس رونذا، أردت من أفواه رونذا أن تعلق على ملابسي، وقد فعلوا. أردت أن يدعوني أهل رونذا بـ «الهيبي» و«البانك» وأن أكشف كم كانت عقولهم صغيرة بكلمة واحدة، وقد فعلوا. أردتهم أن يعتقدوا أني مدمنة، لمجرد أني أضع قرطا في أنفي؛ أردتهم أن يعتقدوا أني أقدم الحيوانات كأضحيات للشيطان لمجرد أني أرتدي ملابس سوداء طوال الوقت، وقد فعلوا. وضحكت وضحكت، عاليا ودون قيد، وإذا لم أكن مشغولة أكثر من اللازم، فأنا مازلت أضحك.

فتحت رواية جانيت وينترسون (ليس البرتقال هو الفاكهة الوحيدة) عينيّ باحترام على المثلية النسائية. صورة الفتيات وهن يمارسن الحب لأول مرة فعلت شيئا بي – على طراز بول ويلر[25]. كانت شيئا مليئا باللون الوردي ورقيقا كما يفترض بالجنس أن يكون، بريئا، غير محسوب. جميل. لا ركبة تدفع ساقيك بحدة لتفتحهما، ولا شيء خشن يوخز وجهك، كان شعورا

25- مغني وكاتب أغنيات وموسيقي إنجليزي من مواليد 1958.

لطيفا جدا، مجرد القراءة، بنعومة، بل الأنعم.

راقبت النساء، راقبت مادونا، راقبت بولا ييتس التي كانت قد بدأت في تقديم برنامج (بيج بريكفاست) في القناة الرابعة، وراقبت ناومي جاكسون، ابنة مدرس الرياضيات التي كنت أخرج معها أحيانا أنا وجوان. كان لهؤلاء النساء شعر لامع وبشرة ناعمة ونهود مستديرة وأردت أن ألمسهن، بخفة، وأردت أن أقبلهن بنعومة، لا أن أشفطهن كما يميل الرجال لأن يفعلوا ويعتقدون بالفعل أنك تريدينهم أن يفعلوا ذلك. أردت أن ألثم بطونهن وعظام أوراكهن. أردت أن أمنح المتعة لأنثى، كما لم أحظ بها قط. أردت بشدة أن أكون مثلية، أن ألمس فتاة بطريقة لم يفعلها رجل قط، لكن على نحو ما لم أستطع قط أن أذهب أبعد من عظام الورك.

تفجر كل هذا بعد حيرة شلت العقل في موجة هائلة من النسوية. اكتشفت فريق L7 الموسيقي المكون كله من فتيات في لوس أنجلوس، واشتريت لنفسي زوج أحذية (دوكس) بثمانية عشر ثقبا وعشت على كلمات أغنياتهن: «لديها بظر يكفيها وزيادة، ولا حاجة لها في أي خصية». ركلت باب حجرة نومي حوالي مائتي مرة، وبالفعل، بأمانة، كرهت الرجال عن حق.

11

كان لديّ هاجس مسبق في سن أصغر بكثير أن حياتي ستشهد تغيرا إعجازيا إلى الأفضل في سن الخامسة عشر وستبقى على هذا الحال إلى الأبد.

ثمة مبنى مائل ومغطى بالملصقات يُدعى (نادي تونيباندي البحري) كان يقف بلا استحياء في ميدان (باندي) وقد نُقشت على أبوابه الخشبية الأمامية كلمات «كل الهيبيز لهم رائحة كريهة». وجدناه أنا وجوان في يونيو 1993 عندما اعتقد فريق (ريتش راجز) أكثر فرق مدينة (هال) المهتمة بإحياء موسيقى الجلام روك[26] أنها قد تكون فكرة جيدة أن يجدوا بعض المعجبين الويلزيين هناك. منذ ليلة السبت المميزة تلك فصاعدا، تشاركنا الطقس الذي كان يؤديه كثير من ناس الوادي الضجرين المتيمين بالموسيقى والذين لا ينتمون إلى الكنيسة.

في كل أنحاء العالم ينقسم المراهقون إلى فئتين، ورغم

26- جلام روك Glam Rock نمط من موسيقى الروك تطور في بريطانيا أوائل سبعينيات القرن الماضي وقام بأدائه موسيقيون يرتدون أزياء فاضحة وماكياج وتصفيفات شعر غريبة، وارتدوا أحذية بنعال ضخمة.

أن مكانا معزولا وقرويا على نحو شديد الفحش مثل رونذا لا يستطيع المشاركة في مثل هذه الأعراف العالمية، إلا أن هذا العرف شق طريقه، حتى إلينا. النمط الأول هو النوع ذو الألوان الزاهية، الذين يقودون السيارات في عيد ميلادهم السابع عشر، مرتادو الحفلات المدرسية الراقصة، قادة الألعاب الرياضية، المتأمركون. والنوع الثاني (الذي يكون دائما ثانيا بالنسبة لآبائهم المحبطين) هم الآخرون: عاشقو الكتب، ذوو البشرة البيضاء كالحليب، الساخرون المتشائمون الباحثون عن إجابات في السجائر والموسيقى البديلة، في مقابل الكمال المشهود الذي يظن النوع الأول أنه يمكن شراؤه بمجرد ميدالية في كرة الشبكة أو بسُمرة بشرة مكتسبة طوال العام. (النادي البحري) هو المكان الذي كان يذهب إليه أبناء الفئة الثانية.

الشيء المميز في رونذا هو النقص الدائم في الاختيارات. من المفهوم أن يختار بعض الناس العيش أبعد ما يستطيعون عن صخب تراخيص فتح الملاهي من التاسعة إلى الخامسة في المدينة والمتاعب الأخرى التي يقدمها للأسف مكان مثل لندن. ومع ذلك، لم تكن رونذا مدينة ولا ريفًا؛ بل هي وادٍ مكون من بلدات، ويمكنك القول إنها ما بين بين، لو لم يكن معدل الجرائم المتصاعد سريعا هكذا، وتعاطي الهيروين وجرائم القتل المحسوب، والشجارات المسلحة في الجمعيات الأهلية التعاونية وكل هذه الاشياء التي تشهدها مدينة كارديف بانتظام، لا تحدث

في الوادي، لكنها كانت تحدث، وبكثرة. لذا يمكنني القول بصدق أن المكان الذي شببت فيه عنيف وصاخب على المستوى المادي مثله مثل أي مكان في مدينة كبيرة، لكن على المستوى الذهني يمكن أن يكون الوادي متضاما كبلدة كو كلوكس كلان خارج الزمن والتاريخ في فيرجينيا الغربية. بأمانة لم أستطع فهم أو أحيانا حتى لم أرد معرفة كيف يمكننا بالفعل الوقوف من أجل النشيد الوطني وقول إننا فخورون بكوننا مواطنين.

لم يكن فقط جيلنا من المراهقين الذين يخشون الشمس ويخافون ملاعب الهوكي هم الذين يذهبون إلى (النادي البحري)، بل كل أجيال الفئة الثانية الذين مازالوا أحياء ولديهم أذواق موسيقية غريبة. عشاق البانك الذين شابت شعورهم المحلوقة على غرار قبائل الموهيكان[27]، وأتباع ثقافة المود[28] الذين تعطلت دراجاتهم البخارية، ومحبو الروك الذين كانوا يعتقدون ألا شيء يمكن أن يكون في جودة فرقتي بلاك سابَث وليد زيبلن الأصليتين الخالصتين، كل هؤلاء الذين كانوا ينتمون إلى شيء آخر غير ملل الوجود العادي للأكل والنوم والخراء والديسكو.

27- من قبائل السكان الأصليين لأمريكا، وكان أفراد حركة البانك غالبا يحلقون شعورهم بطريقتهم، طريقة أقرب لعرف الديك، ويلونونها بألوان زاهية.

28- حركة ثقافية بدأت في لندن وانتشرت عبر بريطانيا وخارجها، وكلمة مود mod مشتقة في الأصل من كلمة modernist وشاع استخدامها في خمسينيات القرن العشرين لوصف موسيقيي ومحبي موسيقى الجاز الحديثة.

لا حاجة لقول إني شاركت في العديد من الحوارات الثرية هناك وقابلت ما سأصفهم وقتها ببعض من أكثر شخصيات رونذا فتنة، من موسيقيين وكنوز متخفية، صار اثنان منهم أفضل أصدقائي.

كان داف في الثامنة عشرة من عمره عندما قابلته، وهو ما يعني أنه كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة فقط عندما كان يعيش في شارع جوان وجولين. سألته بوقاحة: «ألا أعرفك من مكان ما؟»

تساءل ساخرا: «تروركي؟» جماله شديد الرجولة في قالب من طفولة صبي "ضبطوه وآثار الشيكولاتة تحيط بفمه" فتنني بقوة حتى أني شعرت بالضعف واضطررت إلى أن أتشبث به فقط كي أظل واقفة على قدميّ، وفي ذراعيه شعرت أني حرة للحظة، خفيفة، كما لو كنت فراشة فرت للتوّ من شرنقتها.

كان داف يعيش ويعمل في بيت لأصحاب المعاشات مع أمه وإخوته في (مايردي)، بينما يدرس المستويات المتقدمة في كلية رونذا، وكان أكثر موهبة كعازف جيتار من أن يلعب مع فرقة بلدة فيرنديل: (أكسيدنتال هوميساید). وبعد تنقله في أنحاء رونذا وبين بيت أب مدمن على الكحول وبيت زوج أم مخادع، عاد إلى شقة أمه المتحذلقة حد الإزعاج ليطهو وينظف ويجالس الأطفال، وكأن أمه لم تكن قادرة على هذا، وحق القول أنها كذلك؛ لأنها

كانت غالبا في مكان آخر مع واحد أو آخر من أصدقائها الرجال.

أمكث معه في عطلات نهاية الأسبوع، بعد أن أستقل قطارا وحافلة يقابلني عند محطتها. طوال الرحلة أدق بقدميّ في حماس بينما جلين السائق البدين، الذي يرتدي دائما سترة صوفية زرقاء، يغني مع شرائط الكاسيت التي يملكها لفرقة (ستاتوس كو). أحدق في الأرضية المبقعة باللون القرمزي بقوة أظنها ستجعل العجلات تدور بسرعة أكبر حتى نصل إلى (مايردي).

لا نتحدث أنا وداف كثيرا في البداية لكننا نتبادل القبلات كثيرا، على سبيل العزاء كما أظن لأن الجنس هو الجزء الأسهل. في المرة الأولى التي أزوره فيها، كريسماس عام 1993 يقترب ونجلس على فراش أخيه الأصغر في السرير متعدد الطوابق صامتين. الأمر صعب، موقف عليّ فيه أن أعبر عن انجذابي أو ولعي بشخص، والأسوأ أنه رجل. لأني مثقلة بمشكلات سببها لي هذا الجنس وباشمئزاز طبيعي تجاههم، لم يكن عليّ قط أن أفعل هذا. ولم أفكر قط في اضطراري لذلك، على الأقل ليس بشكل مباشر. إمساكي بيد هذا الرجل يشبه فقط المادة التي يجرؤ عقلي الباطن على تقيؤها وأنا نائمة، على أمل أنه عندما يبدأ الغد، لن أتذكر ما كان يدور سابقا في عقلي. بعبارة أخرى، داف هو المادة التي تتألف منها الأحلام ومن المستحيل العثور على الكلمات المناسبة أو حتى الصوت المناسب لإخباره بذلك. أعض

على شفتي وأتدبر الأمر عن طريق تقبيله بطريقة حيادية على فمه. وقبل أن أمتلك الوقت اللازم للتحرك مبتعدة وتوريط نفسي في مزيد من السكوت، يستسلم وأشعر بالأمان.

بعد القضاء على زجاجة من أفضل أنواع الويسكي الأسكتلندي، ستكون الذكرى السنوية «الجسدية» لي أنا وداف هي ليلة رأس السنة عام 1994. أيقظتني النشوة بطريقة ما أقرب لنسخة ديبورا هاري من الجمال النائم[29]. كنت متيقظة وفي الذروة بمقياس ريختر، تلك التي كنت دائما على مبعدة أميال من بلوغها. قلب أحدهم ذلك الحوض الغبي للسمكة الذهبية رأسا على عقب وهزه بقوة فتدحرجت وتدحرجت حتى أصابني الدوار إلى درجة من البهجة تفوق الوصف وبعد ذلك سقطت حرة وطافية كريشة في النسيم، إلى أسفل، أسفل، أسفل، صغيرة وجميلة وهبطت في ذراعيّ داف، عارية وجميلة وأرتعش من اللذة.

تلك هي، هكذا فكرت. تلك هي للأبد، ما تعنيه ممارسة الجنس لأول مرة في لقاء رائع كهذا. أنا وليدة، أنا طفلة رضيعة هنا. هذه هي البداية، بداية حياتي، وسيعتني بي داف إلى الأبد.

عندما لاحظت أمي أني أقضي عطلات نهاية الأسبوع بعيدا

29- ديبورا (ديبي) هاري مغنية وممثلة وكاتبة أغاني أمريكية من مواليد 1945 عُرفت باعتبارها المغنية الأساسية لفرقة بلوندي الممثلة للموجة الجديدة من موسيقى الروك وهي امتداد للبانك.

عن البيت تساءلت عن مكان وجودي. «أتنامين معه؟»

"آه لا يا ماما، هو ينام على الأريكة.." قلت نصف ساخرة ونصف محاولة لأداء فاصل مسرحي، لأني لم أكن متأكدة قبل أن أجيب كيف من المفترض أن تقال. كنت ضجرة من الجدال وضجرة من الكذب.

"طيب، من معرفتي بك، ربما تنامين معه. سأجعلك تناولين حبوب منع الحمل منذ اليوم."

مستندة على غسالتها البدائية لاحقا ذلك الأربعاء، أخرجتُ القرص الأحمر الأول من الجيب، ثم انطلقت بعيدا بمذاق حلو على لساني.

خفت حدة برد الشتاء تدريجيا مع الانتقال من يناير إلى فبراير، لكن بيتي صار أبرد. لاحظت ذلك فجأة، بعد عودتي من مايردي متأخرة ذات مساء من يوم سبت. كان الجو قارسا وفارغا وهادئا ومهما زدت من درجة صوت سماعات الستيريو أو التليفزيون (لم أكن أستخدم التلفزيون قط إلا على سبيل الونس) أو زدت حرارة المدفأة الكهربائية ذات الشعلتين التي كنت أحتفظ بها إلى جوار الفراش في حجرتي (التي كانت المكان الوحيد الذي أستخدمه في البيت)، ظل البيت على حالته الكئيبة ذاتها.

أبكي لأني جائعة ولا يوجد أبدا ما يكفي من الطعام في البيت.

أنفق كل مالي في محل السمك بالخارج على شراء شرائح البرجر ورقائق البطاطس وحلقات البصل وقوالب الشيكولاتة وزجاجات الكولا. وأبكي عندما أكون جائعة بعد أن أكلت كل هذا وأدرك أني لم أعد نباتية على الإطلاق. أنا جائعة للموسيقي، للكتب، للإلهام كي أكتب القصائد كما كنت أفعل وأنا في التاسعة من عمري، لكن مهما قرأت أو كتبت أو استمعت، أريد المزيد. أفتقد داف كما لم أفتقد أحدا في حياتي. أفتقده أكثر مما كنت أفتقد أمي عندما كنت مازلت أحبها وذهبتُ لقضاء الأجازة مع خالتي المهووسة بالنظافة وأطفالها، واعتقد الجميع أن بكائي من أجل أمي في الليل كان «لطيفا».

أهاتف داف وأكلمه طوال الليل، لكن أي شيء يقوله ليس كافيا لطمأنتي أني سأكون بخير حتى أزوره في المرة القادمة. أنا على شفا أن أحبه لكني لن أعترف بهذا لأني مرعوبة للغاية أو عنيدة للغاية. أبكي عندما يذهب وأهاتفه من جديد. أهاتفه حتى ينام الجميع ولا يمكنه سماع رنين الهاتف بعد ذلك.

لا بد أن أبقى في البيت كي أراجع من أجل امتحانات الثانوية العامة الوشيكة، تلك الامتحانات التي بدت قبلاً شديدة الأهمية. أنا سعيدة إلى حد كبير بعمل ذلك على أريكة داف بينما هو يعتني بالعجائز في الطابق الأسفل، لكنه يرفض لأنه يعتقد أن الجنس سيشتتني. أعتقد لهنيهة أنه يرى أحدا آخر وأريد أن أبقى معه

أكثر.

أبدأ في التطفل على بيت أمي ومارتن وطلب الطعام حتى أتمكن من التركيز على المذاكرة دون الموت جوعا. تعطيني بقايا دجاج وسجق وجبن وأرميها في طريقي إلى البيت لأني لا أريد الطعام بالفعل، إنما أريد داف. أشاهد برنامج المسابقات (كريستال ميز) في المساءات على أمل أن يحقنني ببعض الطاقة والحماس للتقدم في بعض مذكرات البيولوجيا. أهاتف جوان لأعرف إلى أي حد أنا متخلفة وعندما تخبرني أنها بدأت بالفعل في مذاكرة الرياضيات أبكي لأني فاشلة أكاديميا وبعد ذلك أهدئ نفسي بما يكفي كي أمضي بنصف حماس في قراءة بعض المقالات النقدية الأدبية لرواية الكاتب الأمريكي ترومان كابوتي (بدم بارد)، ثم أبكي لأن كل مقطع أعود إليه في الكتاب يضايقني بما يكفي للرغبة في العودة إلى داف. أعود إلى بيت أمي قائلة أني أريد مسكنا لصداع سيقتلني. تعطيني قرص ڤاليوم وأعود مترنحة إلى بيتي وأسقط نائمة على الأرض وراء الباب.

عندما أتى يونيو أخيرا وجلست في القاعة الرئيسية لمدرسة تروركي الشاملة مع دفعتي في انتظار التعليمات لبدء كتابة أوراقنا في الأدب الإنجليزي، كنت بطريقة ما في حالة ذهنية

مفرطة الثقة. خلطت السلوك العقلي الإيجابي[30] بالمعرفة الفعلية لشيء ما عن دوافع شكسبير. عرفت ذلك، لكن كان كل ما أريده هو الانتهاء من هذه الأمور اللعينة كي أقضي الصيف مع داف. الأسبوعان الكاملان اللذان قضيتهما جالسة أؤدي اختباراتي للثانوية العامة: شفوي اللغة الفرنسية، نظري اللغة الفرنسية، تحريري اللغة الفرنسية، الرياضيات 1 و2 و3، قاعدة بيانات إدارة الأعمال، جدول بيانات الأعمال، بحث إدارة الأعمال، العرض والطلب، الرسم بالقلم الرصاص، البوب آرت بالفحم، إلخ، إلخ، إلخ، كنت أعرف أن هذين الأسبوعين سيحددان بقية مستقبلي وكل ما أردت التفكير فيه هو الهروب من المدرسة إلى الأبد، وصبغ شعري بلون وحشي، وركوب قطار إلى مايردي.

كان جيرينت فيليبس ذات مرة مدرسا للموسيقى في فصلي بالصف الأول أو الثاني حيث كنت نادرا ما أُظهر انتباها، لكني كنت أحلم كثيرا، وذات مرة حلمت به يتزوج أمي وينقذها من شرور الكحول. غير أني عرفت الآن أنه مثليّ وأنه كان يعيش في مايردي وأنه في الحقيقة عم داف. وكأن علاقتنا كانت تنقصها الصدف، تصادف الآن أن يراقب جيرينت فيليبس امتحاني الأخير يوم الأربعاء 18 يونيو 1994.

30- الإشارة لمفهوم السلوك العقلي الإيجابي الذي قدمه كاتب التنمية البشرية الأمريكي نابليون هيل لأول مرة عام 1937 في كتابه (فكر واصبح غنيا).

أتعجل إنهاء ورقتي في امتحان الكيمياء، أكتب أي هراء، لأمرر الوقت بدلا من إجابة الأسئلة، وعندما أقرر أني قد انتهيت من الورقة ومازال لديّ ستون دقيقة أشاهد جيرينت فيليبس يسير رائحا غاديا في القاعة، عبر التُخَت والرؤوس ذات الخمسة عشر عاما التي يمكنك تقريبا أن تسمعها وهي تنبض بالضغط والتوتر، وينظر إليّ كثيرا وكأنه يقول لي إني توقفت قبل الآوان بكثير. أنقر بأظافري على التختة وكأني أقول له: «أنت ممل، أريد فقط أن أخرج وأظل أسير حتى أصل إلى شقة ابن أخيك وأمارس الحب معه دون توقف كما لو أني لم أفعل لسنوات.»

في وقت لاحق ذلك اليوم كنت أجلس على حِجر داف عند نافذة شقة مايردي بشعر أزرق زاهٍ، أشاهد سيارة جيرينت فيليبس وهي تتوقف عند بيته في الناحية المقابلة.

لم يكن من الممكن لأول ثلاثة أسابيع لي في شقة داف أن تكون أكثر كمالا من ذلك. أنا مرتاحة ورائقة وسعيدة. يبدو أني عشت لقرون أطل عبر عدسات لاصقة ملطخة لم يكن من الممكن غسلها وتنظيفها، ثم جاء داف ليوسع عينيّ وينتزع هذه العدسات. أصبحت الحياة تناقضا في المصطلحات، صافية ووردية. نتحدث كثيرا الآن، أكتب كلمات الأغاني، وهو يؤلف الموسيقى، يعلمني بضع كوردات، لكننا مازلنا نتبادل القبلات. نبدد أياما طويلة حارة في الفراش. ينهض وينظف أنقاض

الليلة الفائتة، يعد وجبات فطور ضخمة ويعود قبل أن أستيقظ، وأحيانا يطعمني بالملعقة. ندخن الحشيش كثيرا ويتطلب الأمر جهدا لارتداء ملابسنا كي نجلس في الشرفة أو على الدكة في الخارج لمدة ساعة. لقد قضيت خمسة عشر عاما كي يبتعد «ذلك الإحساس» أو ينتهي «هذا الموقف» والآن أريد أن أبقى «هنا» إلى الأبد. أريد أن أقضي الأبدية في الفراش مع هذا الرجل الجميل، الجميل.

ذات يوم تموت سحلية الإجوانا. داف في غاية الاضطراب. يدفنها في إحدى الحدائق الصخرية خلف الطابق الأرضي ويخرج العجائز ليشتكوا لأنه يدمر بعض الزهور (والزهور ميتة). يدور داف مكتئبا في الحديقة الصخرية لساعات. أهبط في لحظة ما وأحاول جذبه للصعود من جديد إلى الشقة لكنه يريد فقط أن يجلس ويتفكر في حياة إيجي. أبدأ في الشعور بإحساس بالغ بالخطأ، وكأن شخصا مريضا جدا يلوح لي من بعيد لكني لا أستطيع الوصول له ولا يمكنني أن أتعرف حقيقةً على من تكون له تلك اليد الملوحة الكبيرة الغليظة المحيرة. «أمن الصحيح دفن مخلوق من ذوات الدم البارد في الأرض؟» أسأل نفسي. «لا بالتأكيد.» وبالتأكيد ليس صحيحا بالنسبة لداف أن يجلس هناك كل هذا الوقت. كل هذا الوقت كان يمكنه أن يكون هنا بالأعلى، معي. شيء في معدتي ينفجر ويتدفق بالفوضى ويحتجزني كأسيرة فديتها أن تصرخ. أن تصرخ: «ائت بوجهك الحزين ذاك

وشعرك الطويل إلى هنا وابذل بعض الاهتمام لي.“

هناك شيء خاطئ على نحو بائس. أنا أشعر بالغيرة من سحلية ميتة ومدفونة.

الجو كئيب بالفعل. أنا محبطة من نفسي لتفكيري في مثل هذه الأشياء الطائشة وداف في حالة حداد. وكي يكتمل الأمر، تجيء أمه في أقبح فستان من القطيفة الأرجوانية والوردية على الإطلاق وهي تبكي لأن مجموعة من النسوة في حانة دعوها بالمرأة القذرة. تريد استعادة فراشها حتى تتمكن من الثرثرة وهي تنشج مع زجاجة من عرق (بيرنو ريكار) طوال الليل. أريد أن أصرخ: «ارحلي في ستين داهية!» أريد أن أنهض من تحت اللحاف على الأريكة وأدخل وأخبرها أنها امرأة قذرة وأن هذه شقتنا. هذا فراشنا وينبغي أن نكون فيه. لماذا يرغب الجميع في اختطاف عالمنا الوردي؟ داف ملكي، أتفهمين؟ ملكي، ملكي.

نرتحل مع فريق (أكسيدنتال هوميساید) الذي لا يبدو قادرا قط على الحصول على حفلات محلية لأن لديه سمعة فظيعة جدا. وهكذا نرتحل، أنا وداف والأكسيدنتال هوميساید. يعتقد أعضاء الفريق أني شخص أقرب ليوكو أونو[31] نوعا ما تحاول أن تختطف داف منهم، صديقاتهن الأخريات من نوعية أقرب

31- يوكو أونو فنانة وموسيقية يابانية طليعية من مواليد 1933 تزوجت من جون لينون نجم فريق البيتلز.

لمصففات الشعر في أواخر العشرينيات من أعمارهن ولا يعرفن هل يعبسن أم يضحكن على خصلاتي الزرقاء وجواربي الشبكية. أعتقد أن أعضاء فريق أكسيدنتال هوميساید بأغانيهم المأخوذة من فريق (آيرون ميدين) وستراتهم الجلدية المرصعة بالمسامير أكثر بؤسا من أن يشعر أحد بالغيرة عليهم. نضحك أنا وداف عليهم عندما نذهب إلى البارات ونشرب روم (ماليبو) وحدنا. أتلقى الانتقادات عندما نصل إلى وجهتنا متأخرين ساعتين وداف يمكنه بالكاد أن يقف. أظن في البداية أن هذا ليس من العدل تماما لكني لاحقا أبدأ في إدراك أني أستمتع إلى حد كبير برؤية داف يطلب المزيد من الشراب عندما يعرف أنه ينبغي أن يصعد على خشبة المسرح بعد قليل. أفكر في كل المرات التي قمت فيها بإخفاء البدالات والجيتارات الرئيسية صباح يوم أحد حتى يصل إلى البروفة متأخرا ويمكنني استخدام الوقت الذي يقضيه في البحث لإقناعه بالبقاء. كل المرات التي تذللت فيها كي لا ينتزع داف نفسه من أحضاني ويشغل مكبر الصوت الخاص به. أتذكر كل المرات التي فكرت فيها أن ألقي بجيتاراته من شرفة الطابق العلوي. وأبدأ في التفكير أني لا بد أن أكون بالفعل عاهرة مريضة، مريضة لأن كل هذا جاد وبائس جدا. ليس مقصودا بأي جانب من هذه الأفعال أن يكون مرحا أو هزليا، كله جزء من حاجة واحدة كبيرة وعميقة تتعلق بالحياة أو الموت.

لم يكن من الممكن كلية وتماما وإجمالا ونهائيا أن أكون أكثر

هوسا بداف من ذلك. لا يستغرقني شيء إلا شخصه. ليست لديّ يوميات لهذا العام لأني لا أريد أن أكتب أي شيء آخر. أفكر فيه على الدوام، وأعني على الدوام. حتى وأنا معه. عندما يكون في نفس الحجرة، عندما نمارس الجنس، أفكر فيه وأقترب منه أكثر؛ عندما يكون بداخلي أريد أن أقترب أكثر. ينام وهو بداخلي لأني أعتقد أنه لو ترك جسدي سأفقده. أريد الجنس، حتى عندما يكون أقل ما أريده هو الجنس.

أكره أمه لأنها عرفته وقتا أطول مما عرفته. أكره التفكير في أنه ذات مرة كان مربوطا إليها بحبل سري. أتقيأ عندما أفكر أنه كان بداخل جوفها. أريد أن أكون أمه. أريد أن أكون كل شيء أنثوي بالنسبة له. أبدأ في خلط علاقة حبه/كراهيته لها بعقدة أوديب وأكرهها أكثر.

ذات مرة يأخذ داف أباه الذي سقط فوق رصيف وانفتحت رأسه إلى المستشفى في منتصف الليل، وأجد بطاقة بريدية قديمة في صندوق موجهة إليه من صديقة قديمة اسمها كيرستي تقضي أجازة في لوس أنجلوس. أمسك نفسي عن كرمشتها في قبضتي المضمومة لكني أرقد في حالة هيستيرية على الفراش، في الظلام، من فكرة أن داف له حياة سابقة. أريد أن أقتل «كيرستي».

عندما نمارس الجنس مرة أخرى أحاول أن أقتل داف بدلا من

ذلك. ألف يديّ حول عنقه وأضغط عليها بأقوى ما يمكنني. يجن جنونه تماما ويجري إلى الحمَّام، يحبس نفسه بالداخل ويحاول أن ينتحر بشرب مبيض الغسيل. يقول: «لماذا تكرهينني؟ ماذا فعلت لك؟ أحبك كما لم أحب شيئا من قبل وأنت تحاولين قتلي؟» أبكي وأدق وأخربش الباب حتى أفقد القدرة على التنفس أو الكلام لأنه لا سبيل يمكنني به إقناع داف أني حاولت قتله لأني أحبه، وليس لأي سبب آخر. حاولت قتله لأني اعتقدت أنه لو كان ميتا فلا سبيل يمكنه به أن يهرب مني أبدا. يفتح الباب عندما يبدأ فمه وحلقه في الالتهاب على نحو مؤلم وأعطيه بعض الحليب. أعده أني لن أحاول عض لسانه ولا خنقه مرة أخرى ويُقبلني، رغم أن وجهي مغطى تماما بكحل المسكرة وشعري أزرق وملبد ومخيف وألهث لأني بكيت بشكل غبي وعيناي حمراوان وكبيرتان ومليئتان بالعروق و، حسنا، أبدو كقاتلة نموذجية، ليدي ماكبث حقيقية مجنونة على طراز الروك آند رول وأفكر: «يا يسوع، لا بد أن يحبني الفتى.»

أغرب شيء في هذه العلاقة المجنونة ليس أني مريضة نفسية ليس لديها أي فكرة عن كيفية إدارة علاقة، بل أن داف يحبني. نحن صغيران وعاشقان، ووسط كل هذه الهيستيريا التي تصل أحيانا من الحدة إلى درجة أن ينتهي الأمر بالجيتارات في حمامات ساخنة تفور بالفقاقيع وينتهي الأمر بالملابس ملقاة خارج نافذة حجرة النوم في المطر، نضحك مثل الضباع واقتباسا

من أحد أفلامنا المفضلة "نتضاجع كالعواهر»[32] ودائما، تشرق أشعة الحب الحقيقي متدفقة في مسار ناعم.

32- الجملة من فيلم «غريزة أساسية» إنتاج عام 1992.

12

عندما وصلت نتائجي في الثانوية العامة متأخرة في أغسطس كانت أمي على جزيرة يونانية أو إسبانية مع مارتن ولم يسأل أحد ناهيك عن أن يهتم بأني خرجت من تلك المدرسة اللعينة ناجحة في ست مواد، لذا احتفلت أنا وداف بوجبة صينية وتجريب كل الأماكن الممكنة لممارسة الحب في بيت أمي.

كنت قد اتخذت قرارا حاسما إلى حد كبير بالانضمام إلى داف في كلية رونذا لأداء اختباراتي الخاصة بالمستوى المتقدم قبل أن أبدأ امتحاناتي للثانوية العامة، وهكذا تأكد الأمر: سألقي بنفسي في سبتمبر ذاك في أحضان المستويات المتقدمة للغة الإنجليزية وعلم النفس والفن، وسط الأكل وأخذ استراحات لتدخين السجائر وتبادل القبلات في الممرات والإمساك بالأيدي في الطريق إلى البيت مع حب حياتي.

تنهي ميرا (والدة داف) علاقتها بصديق لها وتأتي إلى البيت مرة أخرى. نضع فراشا لشخص واحد في حجرة الأولاد، لكن هذه المرة الأمر دائم. تظل هناك في فراشنا إلى الأبد، ولا تخاطر بالخروج إلا كي تطلب من داف أن يذهب لشراء المزيد من الجعة

بين وقت وآخر. ولأنها أخذت التليفزيون والستيريو والتليفون في الداخل لم تعد بحاجة للخروج من أجل أي شيء آخر. كل الرجال الذين يجيئون لديهم مفاتيح ويذهبون مباشرة إلى حجرتها. ويتجولون في الشقة عراة في الليل، بحثا عن الحمَّام أو الثلاجة أو شيء ما.

بينما أتشارك مع داف وهيو ودانيال هذه الحجرة الضئيلة وهيو ودانيال لن يستيقظا للذهاب إلى المدرسة في الصباحات لأنهم يظلون مستيقظين طوال الليل ينصتون إلى داف وإليّ بينما نظل متيقظين طوال الليل. أصلي حتى لا تدرك عائلة توماس آخر الأمر أنه من السخف العيش في هذا الوضع المزنوق بينما واحدة منا لديها بيت كامل يخصها على مبعدة مسافة هناك أعلى الوادي.

بالطبع يعرفون، يعرفون كل شيء لكن داف لن يجعلهم يتحدثون عن الأمر لأن كلينا يعلم أن علينا قضاء كل دقيقة من اليوم معا وأني لو غادرت البيت، لن نستطيع. لكن ميرا بدأ يُجن جنونها من الحوض المبقع بصبغة الشعر وبقع الألوان الزرقاء والخضراء على الجدران الوردية حيث استندت بينما كانت ساقاي ملفوفتين حول خصر داف. وعندما ترى حقيبة أو قطعة ثياب تخصني على الأرض تتظاهر بالتعثر فيها وتخبر داف إنها آذت كاحلها. ذات يوم تدخل حجرة نوم الأولاد حيث أنا مستلقية آكل النوتيلا من البرطمان مباشرة ولا بد انها رأت شيئا ضايقها

فعلا لأنها تعدو خارجة وهي تشد شعرها وتلقي بقطع الأثاث من حولها. وعندما يخرج داف من الحمَّام واضعا منشفة حول جسده تلكمه بشدة في وجهه.

قررت بعدها سريعا أنه من الأفضل أن أغادر البيت بدلا من رؤية هذه البذاءة مرة أخرى. كانت ميرا لتفضل أن تلكمني أنا، أعرف هذا، لكن بدلا من ذلك كانت كدمة العين السوداء من نصيب داف. أحسست أن تلك لم تكن المرة الوحيدة، وأن هذا لم يكن الموقف الوحيد الذي تغدو فيه عنيفة دون داعٍ. أحزم أشيائي وانقلها بالعربة عائدة إلى هندريفادوج، في محاولة عبثية لأن أوفر عن داف نوعا ما من البؤس أعرف عنه قدرا لا بأس به.

عندما أسمع الصمت الذي يصم الآذان من جديد وأرى أنفاسي في الهواء المتجمد، رغم أننا فقط في سبتمبر، لا أحاول أن أتحمل الأمر، ولا أحاول أن أهونه بتشغيل كل الأجهزة الكهربائية في البيت، بل آخذ حبة منومة أو ثلاث وأشخر بين نوبات الحنين. أسرق قرص ڤاليوم من وقت لآخر عندما أكون في بيت أمي وأغيب عن الوعي كلما انتابتني أفكار ملحة عن داف. أتمكن من الذهاب إلى الكلية يومين ونصف كل أسبوع وبقية الوقت إما أني مشوشة صراحةً، أو في غفوة ثقيلة على فراشي الوحيد، مرتدية ثلاث طبقات من الملابس. لا أفكر قط في داف. بالطبع أكون مسرورة برؤيته في فصل الرسم وفي المقصف، لكني لم أعد

أبكي بعد الآن عندما يركب حافلته وأركب حافلتي؛ لأني مشغولة للغاية بالقلق حول الحصول على مسكنات كافية أو حبوب منومة أو أقراص ڤاليوم لتأخذني إلى ذلك السديم الأسود الرائع من اللاشيء عندما أصل إلى البيت. ودائما لديّ ما يكفي، وعندما لا يكون لديّ ما يكفي، عندما أكون قد استهلكتها كلها في الليلة السابقة، أجد طرقا أخرى كي أنام: مثل التراجع عشر خطوات عن الحائط والجري إليه محطمة رأسي بكامل قوتي عليه.

أحيانا أهاتف داف أو يهاتفني هو، لكني أبدأ في السقوط نائمة في منتصف محادثاتنا. أستيقظ والسماعة في يدي بعد أربع وعشرين ساعة أو أستيقظ على أرضية المطبخ أو في الممر؛ لأن موضوع تحطيم الرأس يحدث أكثر وأكثر، لأن الأمر يتطلب الآن حبات أكثر وأقراصا أكثر مما يمكنني الحصول عليه.

أعرف أن الأمر خاطئ، يبدو إحساسه خاطئا، إحساس طفيف بالخطأ يقرض في قرارة أحشائي، لكن هذا هو ما عليه: هو فقط طفيف. كل شيء طفيف لأني غالبا مخدرة أكثر من قدرتي على الشعور بأي شيء أكثر من شعور طفيف؛ وعلى السطح أنا سعيدة إلى حد كبير بإدماني للمخدرات. فنوبات يأسي العشوائية السخيفة لا تُهدَر على أي أشياء قديمة فارغة، بل هي الآن كلها مركزة على هذه المادة الطباشيرية السحرية. هكذا يفعل مدمنو المخدرات، وهذا لا بأس به لأنها مشكلة يمكن تمييزها وفهمها

ولأول مرة منذ زمن طويل أشعر أني طبيعية نفسيا، كما لو أن الناس سيفهمون الآن لماذا أنا غريبة هكذا ومزاجي متأرجح، وسريعة الغضب بشكل غير متوقع. هذا لأني أريد قرصا أو أخذت واحدا، أو تنسحب مني آثار واحد، وليس لأني في الطبيعة مريضة عقليا أو أعاني من الفصام أو مكتئبة إكلينيكيا على نحو صريح وممل.

وسط الجنس والمخدرات والروك آن رول كان هناك نقص فادح في المال، وهو الأمر الذي لم ألاحظه قط بينما كنت سعيدة ومع داف أو بينما كنت نائمة ولست في حاجة للشراء. ثم في صبيحة يوم أحد أستيقظ وأريد شيكولاتة. ليس معي قرش لأني أنفقت الخمسة جنيهات مصروفي على زجاجة نبيذ **20/MD 20**. لكني أريد شيكولاتة أو أي نوع من الغذاء بشدة إلى درجة أني على استعداد للنزول إلى المحل على الناصية وسرقة بعض الطعام. لم أسرق قط أي شيء في حياتي إلا إذا حسبت بضع حلي نحاسية خبأتها في معطفي من بيت جدتي عندما كنت في الثالثة من عمري، والتي عوقبت بقسوة عليها. والآن أنا لا أبالي أي نوع من الخطيئة تلك، أو من يخسر المال، أو حتى لو تم الإمساك بي. أريد طعاما. أنا مرهقة جدا من كوني مفلسة. أنا متعبة جدا من اضطراري للذهاب إلى بيت أمي لطلب المزيد من المال، حتى أتمكن من شراء بعض السدادات القطنية لنفسي. أنا جائعة جدا، ومع ذلك ممتلئة جدا بالاضطرار للتأقلم دون طعام حتى أني أجد

نفسي مدفوعة إلى المحل، ومدفوعة لوضع برطمانات النوتيلا في جيوبي، ومدفوعة لإخفاء فطيرة محشوة في حذائي العالي حتى الركبتين. ثم أشتري كيسا من رقائق البطاطس بحوالي بنسين ونصف بحثت عنها تحت الفراش والأريكة؛ وأسير عائدة إلى البيت، دون أن يتم كشف أمري. آكل الطعام وأشعر أني في حال طيبة بما يكفي لشخبطة بعض التخطيطات الأولية لنباتات البيت من أجل ملف الرسم الخاص بي. أشعر بالرضا وأني غير مذنبة.

أخطط مغامرات سرقاتي الصغيرة بالتفصيل الممل. يوم الأحد يكون الابن فقط في المحل، بينما تظل بقية العائلة في الطابق العلوي ويعدون أموالهم أو شيئا آخر. ويكون الابن دائما أكثر انشغالا بالحديث إلى الفتيات أو أصدقائه، أو أي شخص آخر يدعوه وراء الكاونتر، من أن يلقي نظرة على شاشات المراقبة. لذا أحصل على طعامي يوم الأحد. واقعة منتظمة، يوم الأحد المنقذ.

أنشط بما يكفي لقضاء أسبوع كامل في الكلية. أعيد كتابة ورقة كلفت بها في علم النفس وأحصل على تقدير **A** بدلا من **C**. أبدأ في العمل على مجلة للهواة كنت أفكر فيها طوال ستة شهور تكون بمثابة دليل لمحبي الروك. أراجع مجموعاتي الخاصة بالمجلات والمطبوعات الصحفية الخاصة بالموسيقى لأبحث عن الأفكار والأحداث الخاصة بالفرق ومحبيها. ألقي بذراعيّ حول داف عندما أراه في الصباح وأُقبله وأعانقه وأقهقه معه.

إنه يوم أربعاء ولدينا كلانا رسم مع سيمون، الأكثر استقامة من المستقيم لكنه لعله مازال هو المحاضر المثلي. لكني أريد أن أكون وحدي مع داف لمرة واحدة، بالنظر إلى كوني عاقلة اليوم بما يكفي للاستمتاع بصحبته. نختبئ في أرجاء الكلية، والحدائق، والردهات، وقاعات الكومبيوتر، فقط نتحدث ونتبادل القبلات ونحن صغيران وسعيدان وعاشقان. نجد أنفسنا رابضين وراء الدكك في ظهر قاعة محاضرات فارغة، وقبل أن ندرك ما نفعله نمارس الجنس على الأرض. أرتدي تنورة لأنه لم يعد لديّ ملابس نظيفة وداف بداخلي. ينظر أحدنا إلى الآخر مصدومين ويقول داف: «ياللعنة! ماذا نفعل؟ ماذا لو دخل أحدهم هنا؟» ثم نبدأ في الضحك، لأننا لم نمارس الجنس منذ وقت طويل وقد حدث الأمر بشكل طبيعي للغاية وأوتوماتيكي للغاية، حتى أننا بالكاد لاحظنا. ننهي الأمر ونخرج بوداعة. أنا دافئة ومحمرة الوجه وعندما أصل إلى البيت أريد أن أقوم بمزيد من العمل.

أبدأ في رؤية داف بانتظام أكبر؛ فهو يأتي في عطلات نهاية الأسبوع، أو عندما يستطيع الفرار من العمل. يساعدني في مجلتي؛ أجري مقابلة مع فرقة أكسيدنتال هوميساید رغم أنهم لم يكن لهم قط أي جماعات من المشجعين. أساعده في مقطوعة تجريبية فردية يسجلها وأرسل نسخا منها إلى فرق مثل (وايلدهارتس) ممن يحتاجون عازفا للجيتار وإلى مؤدين فرديين ربما يحتاجون يوما ما عازفا للجيتار. في هذه الأثناء

أقنعه بتكوين فرقة من الطلاب ستُسمى (كاش موني بيجي) وأزور الشقة وأساعد في العناية بإخوته لأن أمه تبدأ في التغيب دون مغادرة من جديد.

في لحظة ما يتورط داف أو ينجرُّ إلى حملاتي لسرقة المحل، ومقدار الطعام والشراب الذي ينتهي به الأمر في حوزتنا، مجانا، سرعان ما يصبح أكثر من حاجتنا، أكثر مما سنستهلكه أبدا في يوم أو ثلاثة أو حتى في أسبوع. لكننا لا نتوقف، بل نسرق أكثر. نبدأ كلانا في التحول إلى شخصين جشعين. يحصل داف على كل هذه الزجاجات من الويسكي وروم ماليبو والنبيذ من محال السوبر ماركت في تروركي، ويجلبها إلى بيتي. يمكننا بيعها وكسب بعض المال هنا، لكننا نشربها كلها، وهي كمية أكبر من أن نشربها بكثير، لكننا نشرب حتى الثمالة ونسرق المزيد. ندخل المكتبات ومحلات اللعب في بونتيبريد، ونخرج بكتب وحلويات وكل هذه الأشياء التي لن نحتاجها قط، فقط لخاطر المتعة الخالصة الناتجة عن الهروب بها. نتنافس. من يستطيع الخروج بأكثر الأشياء من هذا المكان؟ أخرج بتسع زجاجات عطر من محلات (بوتس) لأن فرد الأمن يعرف داف من فريق سابق وأمسح الرف تحت أنفه، بينما هو يكذب على داف بشأن قيام منتج الأسطوانات جيفين بالتعاقد معه.

عندما نصل إلى البيت نقيّم الأشياء كلها، وتصل قيمتها إلى

حوالي مائتين أو ثلاثمائة جنيه من أشياء لا نريدها حتى. نضحك على كل البضائع وعلى نفسينا؛ ونمارس الحب محاطين بها كلها، وكأننا بشكل ما مجرمين غريبي الأطوار عاشقين للمرح مثل بوني وكلايد.[33]

تدعوني جوان إلى الخروج مساء يوم أحد إلى مسابقة موسيقية في حانة تروركي. ولأن داف قد عاد إلى البيت، أريد الذهاب. أريد أن أخرج مع صديقة كدت أنسى أمرها، لكن يأتي مساء الأحد ومعه مفاجأة مدهشة، ليس لديّ أي مال. لا أريد أن أبدو معوزة وغير قادرة على دفع ثمن الشراب عندما تقدمني إلى كل هؤلاء الأصدقاء الذين قابلتهم، بينما كنت أنا في مكان آخر؛ أنام أو أمارس الحب أو آكل النوتيلا.

سأتولى أمري، وأسرق بنفسي في طريق خروجي، وأدخل (تروركي سبار) بسترتي الجلدية ذات الثمانية جيوب. أضع ما أريده في جيوبي وأسير خارجة وعندئذ أشعر بيد صارمة على كتفي. «عودي إلى الداخل..» يقول المدير ويشدني إلى الخلف وسط متسوقي المساء الذين يحدقون، إلى داخل الغرف الخلفية، وإلى داخل المكتب. يتم إبلاغ الشرطة ويأمرني المدير بمشاهدة

33- بوني وكلايد هما زوجان أمريكيان اشتهرا خلال فترة الثلاثينيات من القرن الماضي بجرائمهما التي روعت جنوب الغرب الأمريكي.

فيديوهات المراقبة. يقول: «كنتِ جيدة، لكن ليس بالجودة الكافية.»

أقول: «أراهن أنك تقول هذا لكل الفتيات.» وعندما يأتي الخنزير الكبير السمين، يسألني إن كنت آسفة. أقول: «لا.» أنا لست آسفة. لا يتعلق الأمر بالكبرياء، فليس لديّ أي كبرياء. أنا معدمة وهذا المدير يمتلك ثلاثة محلات. أنا لست آسفة ببساطة.

أخبر الخنزير أين أعيش، وأخبره أن والديّ لن يكونا هناك. لا يصدقني، لذا أناوله بطاقتي الخاصة باتحاد الطلبة مع عنواني. ثم يسألني أي المستويات المتقدمة أدرس، وأخبره، ويبدو مصدوما تماما. يأخذني إلى السيارة، وهناك فقط أبدأ في البكاء، حيث لا يمكن للمدير صاحب المال أن يراني. يقول إنه سيأخذني إلى البيت، وإذا لم يكن هناك أحد، سيكون عليّ أن أنتظر في القسم. وأفكر أن هذا عظيم، سيكون عليّ أن أنتظر هناك إلى الأبد وسيطعمونني ثلاث مرات في اليوم. ثم يسألني إن كنت أبكي لأني خجلة مما فعلته. «لا..» وأبصق. «لست آسفة، لا أشعر بالذنب ولست خجلة. أنا فقط قرفانة تماما لعدم قدرتي على الخروج ورؤية صديقتي، أو على شراء وجبة دسمة، لعدم قدرتي على شراء أي ملابس، ولعيشي على خمسة جنيهات في الأسبوع في بيت وحدي.» أظن أني صدمت الرجل ذا الزي الرسمي لأننا عندما وصلنا إلى بيتي، تركني خارجه وقاد سيارته مبتعدا. ربما لم يكن

راغبا في التورط في أي صراعات اجتماعية أو عائلية.

بمقدور الناس قول إن عاداتي الخاصة بسرقة المحلات قد تكون ناشئة عن مشكلات شخصية، مثل المرض العقلي، مثل كل هواجسي الأخرى: داف، المسكنات، الموت، الصمت، إلخ. من المعروف أن النساء اللاتي يعانين من النهم العصبي أو فقدان الشهية العصبي غالبا ما يصبحن مدمنات على سرقة المحلات، فيسرقن ملابس داخلية مقاس 6 والتي لا تناسبهن. لكن مهما تُحلل حاجتي لبدء سرقة الممتلكات المادية، فأنا أعرف أن علاقة تحليلك ضعيفة بكوني طفلة تم الاعتداء عليها، أو مراهقة مهمَلة، أو في الحقيقة لا علاقة له بهذا. أنا طالبة في السادسة عشر من عمرها تعيش وحدها. أسرق لأني بحاجة لهذا. أحتاج إلى السرقة، لأني لا أستطيع تحمل كلفة الشراء.

13

كان جريف شخصا من النوع الذي يمكنك الزواج منه بسهولة، ولا تفكري أبدا في ممارسة الجنس معه. شخص يمكنك وصفه بالتعبير المبتذل غالبا «شخص لطيف حقا»، ولا تحتاج إلى أي شرح أكثر من ذلك. هو أقرب أصدقاء داف. عاش في مايردي كل حياته ومازال لا فكرة لديه إن كان حرف الألف أم حرف الياء هو الذي يأتي أولا فيها. ماتت أمه عندما كان في الخامسة عشر من عمره وربما لم يرَ أباه قط. وكان شقيقان له قد رحلا إلى لندن وإلى بريستول ليبحثا عن حظيهما وسط الدخان القذر. كان يعرف القانون ويعرف كيف يخالفه بالضبط، دون أي نوع من المؤهلات؛ لأنه تعامل وحده مع المجلس والأمن الاجتماعي منذ تُرك وحيدا.

وذات يوم يعلن أنه سيزور أخاه الأكبر في كنسنجتون ويتركنا أنا وداف مسؤولين عن شقته، وكلابه السلوقية، لما يدعوه «بضع أسابيع». تقع شقته في منتصف الضيعة القديمة، عاليا فوق جبل مايردي. علبة من الطوب مكونة من حجرتين، أهملها الهدم[34].

34- ثمة تعبير معروف «هدم بالإهمال» تقوم الكاتبة هنا بقلبه.

لكننا أنا وداف نتصور الكمال. ليست هناك تدفئة، لذا نخنق نفسينا بأكياس نوم نتنة الرائحة على حشية وحيدة، في ركن الحجرة التي تفشت فيها ملصقات قديمة لفرقة (واسب).

ذلك الصباح وجدنا عشرات من أكياس المجلات المربوطة على ممسحة الأقدام أمام الباب، التي جاءت عبر صندوق البريد في لحظة ما في الليل، من شخص الله أعلم من يكون؟ كشر داف بامتعاض لمرآها وفتح إحداها بحرص أمام وجهينا الفضوليين. التمعت مليون بلورة وردية، التماعة أكثر قليلا من عيني داف تحت مصباح الممر.

أسأل: «هل أصنع بعض شطائر من أصابع السمك؟»

يقهقه داف: «لن تحتاجيها. لن تنامي أو تأكلي لمدة يومين.»

بعد أربعين دقيقة تندفع طاقة ثقيلة بداخلي، بادئة من أخمص قدميّ وضاربة الطرف الصلب الأعلى من جمجمتي. اهتياج مادي عاطفي. بالطبع ليس من الممكن المرور بنشوة أكثر إرضاء من المرة الأولى التي أمسك فيها داف بيدي في شارع مايردي هاي ستريت.

ذلك الأسبوع فقدت خمسة أرطال. وفي الأسبوع التالي خسرت عشرة؛ في خلال شهر فقدت تسعة كيلوجرامات ونصف. وبعدها بقليل، توقفت تماما عن الأكل. الشيكولاتة وأطباق سلطة

التونة وكعكات الجبن الهشة التي كان بمقدور داف أن يطهوها بشكل مبهج للغاية، توقفت عن إثارة حواسي. كانت هذه علامة أكيدة، في المقام الأول، على أن الأمفيتامين[35] كان يغير حياتي بسرعة.

برزت ضلوع وعظام ورك داف من جلده المتعفن. وتغير لون جلد سمانتيّ من الأسمر الفاتح إلى الأزرق الغامق. وبدأت العروق في البروز من تحت جلدي، حمراء أرجوانية وسوداء. وبدأت أطرافي تشبه خريطة شوارع كارديف.

طوال ثلاثين يوما كان ضوء النهار مجهولا بالنسبة لنا؛ وكانت مغادرة البيت في ضوء الشمس كفيلة بسرقة توازنك. كنت أشعر بالغثيان كل يوم. كان عقلي يتقبل المخدر، ومعدتي تقاومه. وكانت الدماء وبطانة المعدة تنقذف من حلقي الملتهب في كل مرة أفتح فيها فمي لأتكلم. لم يكن هذا مهما، فقد كانت السرعة هي كل شيء الآن، كان تحفيز جهازي العصبي هو كل شيء الآن، مخدري وحبة حميتي ومثير شهوتي الجنسية.

أقدِّر مارتن لأني أعرف أنه السبب في أن تقوم أمي أخيرا برفع دعوي للطلاق من براين. أعرف أنه كان يمكنهما الاستمرار في الشراب والشجار إلى الأبد، لو لم يظهر مارتن في فندق

35- منبه الجهاز العصبي المركزي

دير ذات ليلة، وفتن الساقية بنياشينه الخاصة بالقوات الجوية وسلوكه كجنتلمان إنجليزي يقوم بفتح أبواب السيارة. أعرف أن هذا الرجل بطريقة ما بعيدة وغير مقصودة قد أنقذ حياتي. أتذكر الرقاد في الفراش، مرتعشة داخل صَدَفة من حطام حرب سوداء بلا هدف ومتسائلة أين كانت أمي. متسائلة لماذا لم تكن هناك كي تخرجني من هذه المعركة الدامية المبتلة والمؤلمة التي أخوضها من أجل فراش طفلة؛ وخمنت للتو أنها كانت في شقة مارتن، حيث كان يؤدي طابور من الملابس الداخلية إلى فراش من ورود. كان ينبغي لهذا أن يجعلني غاضبة؛ فقد جعل براين غاضبا. أتصور أن جزءا كبيرا بالفعل وراء أذاه لي: أن أمي كانت تؤذيه. لكني أتصور أيضا أنه قد أذى أمي وأنها تريد الهروب كما أريد بنفس القدر. المشكلة أنها تهرب طوال الوقت، لكن حتى تعلن أن هروبها ذاك دائم لا يمكنني الهروب مرة واحدة. أصلي كي يتوقف مارتن عن فتح أبواب السيارات وغرف النوم، وأن يأتي بفعل حقيقي ما، أن يفعل شيئا مثيرا جدا لدرجة أن تعود أمي إلى البيت ذات صباح وتعلن أننا سنترك البيت. بالطبع، بعد سنوات يكون هذا ما حدث، وأشكر مارتن على هذا.

لكني لا أستطيع أن أجده؛ ذلك الشيء الذي يُطلق مباهج الحياة والحب والخير. لا أستطيع أن أجده داخلي كي أحب مارتن على نحو خاص. أظن أني في البداية كنت مرعوبة من أن يحاول انتزاع بعض الحياة مني هو أيضا. لكن فيما بعد، تبين أنها فقط

تلك الشخصية الميتة، التي تجعلني أبغض معظم الناس. لا يمكنني تجنب التفكير في أنه خلال عملية إنقاذي، سرق أمي، وهو ما جعل حياتي بالفعل أسوأ بكثير.

أدركت وضعي عندما بدأت في النحيب وأنا أذرف ماء مالحا وحقائق منزلية للشرطي الذي جاء وأخذني من تروركي. قلت في عقلي: مهلا، أنا بالفعل لم أرَ أمي لبضع سنين لا بأس بها. هي معه طوال الوقت. تعيش معه. تطهو له فخذ الخنزير والفلفل الحار، وتعطيني فضلات طعام بائتة آخذها إلى البيت وآكلها وحدي، في بيت بلا غاز والقليل من الكهرباء. وبينما يجلسان ليشربا العرقي أمام النار، أخطط أنا للطريقة اللعينة التي سأتمكن بها من الخروج من أحد المحلات بعشائي في جيبي. وعندما يكونان خارج البلاد، أهرول أنا رائحة غادية بين البيوت لأطعم قططا وكلابا، وأسقي نباتات، لا شيء منها يخصني. وأمي تكره رؤيتي؛ لأنها تريد فقط أن تنسى أن لديها ابنة الآن وأن تمضي في حياتها، تمضي مع مارتن، وهذا هو ما تفعله.

"هل يعجبك هتلر؟" يسأل داف في محاولة لتفسير شيء أجد استحالة في استيعابه.

"لا."

"لكن يجب أن تفهمي أنه لا بد وأن كان رجلا عظيما كي

يمتلك القوة والنفوذ الكافيين لفعل ما فعله، حتى لو كان لا يعجبك. ذلك هو الاحترام.»

"لا تكن بهذا الغباء. تبدو كشخص نازي. لقد أصبح هتلر قائدا لألمانيا بسبب ظرف سياسي فقط. لا علاقة لهذا بالقوة والنفوذ. انحل الحزب الشيوعي ولم يبق غير هتلر، هذا هو كل شيء."

"ياللمسيح..." يقول داف.

في سن السادسة عشرة أنا مراهقة تجيد القراءة، ويمكنني أن أخبرك بمعنى أكثر القصائد والأغاني غموضا، لو سألت. أعرف الكثير، لكني لا أعرف ولا يمكنني شرح مفهوم «الاحترام». يزعجني هذا، يزعجني بالفعل، لأنه مهما قمت بالرجوع إلى القواميس، ومهما يقم داف بشرحه، لا يمكن لعقلي الإحاطة به. فأنا لا أنظر إلى البشر وفق هذه المفردات. إما أحبهم أو لا. والقائمة القصيرة للأحبة قصيرة جدا. يقع الاحترام داخل الفئة غير المفهومة إلى جانب الثقة. لعلي فهمت ذلك في لحظة ما. ولو فعلت، فقد مضى على ذلك عهد بعيد.

بدأ داف يجد الأمر مضجرا، كل هذا التساؤل، مضجر جدا حتى أنه بدأ يظن الأمر مزحة. مثل الوقت الذي اعتدت فيه أن أسأله ما هي قبلة قوس قزح، لأرى إن كان هذا سيحرجه. وظن

أني كنت أختبر صبره.

أظن أني أثبت أنه على خطأ عندما أنقل الأرقام الموجودة على بطاقات مارتن الائتمانية بينما هو يقضي أجازة مع أمي، أتحسب لتواريخ انتهاء الصلاحية وأنقل توقيعه وبعد ذلك أشتري ملابس بالطلب عن طريق البريد. أحذية عالية الرقبة وتيشرتات **L7**، صديريات وسروايل، كل هذه الأشياء اللطيفة جدا. من الجيد أن تكون لديك ثياب جديدة، ثياب نظيفة. أتمنى لو لم أضطر لفعل هذا. أتمنى لو كان معي المال لشرائها بنفسي، لكني لا أملك المال لأن أمي تنفق أموال إعانة أسرتي على مشترياته من البقالة.

تدريجيا، ما لديّ من الحياة، الأسس الثابتة الحقيقية الوحيدة التي تبقيني واقفة على قدميّ، تبدأ في الانحلال. مازلنا أنا وداف عاشقين، ومازلت أعلم أنه سيكون شيئا أبديا، لكن من الصعب للغاية الإبقاء على استمرار الأمر في سلاسة بينما أمه قد غرست نفسها بيننا. لا يمكنني البقاء في مايردي لأنه لا توجد أي مساحة. وداف لا يمكنه البقاء معي لأن عليه أن يعمل. وقد مُنع من الذهاب إلى شقة جريف لأنها غير صحية، ولكني أعلم أنه قد مُنع لأن أمه لا تطيق أن تدعنا معا. وأنا التي ظننت أني أعاني حالة سيئة من وحش الغيرة ذي العينين الخضراوين[36]! عندما نتحدث أنا وداف

36- تعبير صكه شكسبير في الأصل للإشارة إلى الغيرة بالوحش ذي العينين الخضراوين وشاع استخدامه.

في الهاتف، يأتي النداء إليه كي يغسل طبقا أو ينظف حوض الاستحمام.

ولأن كل هذا يحدث، فالفرصة الوحيدة لديّ كي أرى داف أو أتحدث إليه هي في الكلية. أتغيب عن المحاضرات. أكون في المقصف مع داف، أو في الممر مع داف، أو في الحقل مع داف.

أذهب إلى النادي البحري مع جوان أحيانا، لكن النادي يغدو كئيبا للغاية وخاليا، لم يعد أحد يذهب هناك. لدى الناس أطفال ولا يمكنهم الإتيان بمجالسي أطفال. ينتقل الناس إلى كارديف ليهربوا من رونذا التي يكرهها الرب ويذهبون إلى نادي روك (بوجيز) بدلا من ذلك. يتقلص الزبائن أسبوعا بعد أسبوع، حتى لا يبقى غيرنا أنا وجوان وخالتها محتلات مساحة مائدة صغيرة واحدة، ويجد طاقم العمل صعوبة في استمرار فتح المكان مساء كل سبت.

كانت حياة جوان تتقدم بينما حياتي تهيم حول حياة داف. كانت قد قضت الكثير من الوقت في استكشاف حياة تروركي الليلية وصادقت الفرق الموسيقية المحلية مثل (سايكو إليوت) و(واك تِركي) في ناديّ (ليون) و(برنس). كنت أتحول إليها بأنانية عندما أُترك دون داف. لكنها كانت مستعدة، بإيثار كبير، لتقديمي والسماح لي بمصادقة كل أعضاء هذه الفرق وأصدقائهم. كنت أجري معهم مقابلات وأقوم بالبحث حولهم والكتابة عنهم

من أجل مجلتي؛ وساعدوني في تكاليف تصوير النسخ ومنحي الأسطوانات والتذاكر المجانية. صدرت مجلتي، المسماة (سماك رابونزل)، وحققت مبيعات جيدة. أنا سعيدة بالنتيجة، وسعيدة بدائرتي الجديدة من الأصدقاء. لم أكن أبدا بهذه الحالة الصحية الجيدة اجتماعيا، ومع ذلك لا يمكنني تجنب التفكير في أني أفقد كل شيء. في الوقت الذي أتشبث فيه بقشات جديدة مثيرة، كانت القشات الأهم، القشات التي اعتدت على القبض عليها بإحكام هائل كانت ترتخي وتنفلت بعيدا.

عندما عاد جريف إلى مايردي لم تعد هناك أي فرصة لي أنا وداف كي ننسل إلى الشقة. زرت شقته لساعة أو اثنتين يوم السبت، واستمعت إلى جريف وهو يتحدث عن الاختلافات المدهشة بين كنسنجتون ورونذا، وكأني لا أعرف شيئا عن هذا. ولمزيد من حيرته، كان عليه أن يخبرنا أن أخاه أدار مصنعا للأمفيتامين في بناية كان يشاركه فيها جار جريف. وكانت المخدرات التي وجدناها أنا وداف ذات صباح هي المخزون الذي لم يمكن بيعه وكان مقصودا به أن يعاد إلى لندن.

انقلب الخريف إلى شتاء مرة أخرى واقترب الكريسماس. وبينما أنا جالسة وحدي ذات مساء آكل شيكولاتة مسروقة وملتفة في ملاءات قذرة، يفتح داف الباب ويصيح من فوق السلم. نداء من نوعية «عدت يا حبيبتي» وأبتسم ابتسامة صادقة حقيقية،

وأشعر بذلك لأنها حادثة نادرة الوقوع. يقول: «سآخذك إلى كارديف» لكنه يُقبلني أولا. يلمس شعري ووجهي، وأشعر أني أسقط من جديد، خفيفة وصغيرة ومتطايرة كالريشة. طفلة رضيعة من جديد بين ذراعيّ داف. لا حول لي وهو يحميني. نُفوّت ثلاثة قطارات وعندما أدرك الوقت أقول: «أنت فظيع.»

ويقول داف: «وأنت أكثر تقبلا للعدوى من اللازم.»

مدينة كارديف مضاءة على نحو مبهج بالأضواء الحمراء والذهبية والخضراء. الشوارع تغص بالمتسوقين، لكن لا يبدو الأمر أشبه بالهرج والمرج المعتادين حيث تدهس قدميك عربة مشتريات أو عربة أطفال. الأمر أشبه بالرقص، مستهلكا المساحة التي لديك وشاعرا بالحرية معها. إنها فقاعة على طراز (الفيلم نوار). ذاك مكاننا، أنا وداف، حيث نطفو فوق منشدي الترانيم، وتدفعنا برقة نغمات ترنيمة "هلمّوا يا مؤمنون".

الأولوية لدى داف هي الوصول إلى محلات كرينز للآلات الموسيقية التي تظل مفتوحة إلى وقت متأخر بنية أن يلطخ بيديه بدال (كورج) الرائع، الجديد في السوق. يختار مسارا طويلا نمر فيه بمحلات متخصصة في الفضة، لأنه يعرف أني لا أحب الذهب. إنه خاتم بفص من حجر الجمشت موضوع في خنصر يدي اليسرى. طيبة فاضحة ملفوفة حولي فيما يساوي عشرين جنيها إسترلينيا من المعدن. يملأ هذا عينيّ بالدموع، لأنه جميل جدا.

إنه مثالي بشكل غير واقعي لدرجة أني يجب أن أفكر فيه. أفكر فيه أكثر من اللازم، أفكر في كيف أني أمقت الكريسماس تماما، وأي وقت حزين هو بالنسبة لي، وأكاد أندم لأن داف يحاول أن يغير هذا. ثم أفكر، ما المشكلة؟ ما كان كان، وألقي بذراعيّ حوله وندور في أحضان بعضنا، ندور وندور مثل هذا الخاتم.

تقريبا ثلاثة أسابيع من الوقت الفارغ علمتني كيف يكون للممتلكات المادية معنى. قال مصمم ديكور شهير ذات مرة إن كل شيء في بيتك ينبغي أن يكون إما جميلا أو نافعا أو الاثنين معا. لفترة حاولت أن أعيش حياتي بوجهة نظره تلك وأفلحت. بالطبع ليست الكتب والأسطوانات المدمجة مجرد أشياء مادية. هي أهم مصادري للتعلم، وتعلم النوع الصحيح من القوة. والقوة ليست غير ذات معنى ولا هي مادية.

أبقيت هذا القفص المحكم حول عقلي، واعتقدت أنه من المستحيل أن يتمكن أحد من الولوج داخله مرة واحدة. أقمت صداقات ووقعت في الحب، وأقمت صداقات ووقعت في الحب، لكنني اعتقدت نوعا ما أن كل شيء مادي هو كل شيء لا تتورط ذهنيا معه. لذلك مهما قدَّرت هؤلاء الأشخاص، إلا أنهم لم يبلغوا قط ما أحمله من تقدير للتعليم أو الموسيقى أو الكتابة أو القوة. ولا فعل ذلك الخاتم. فهو لم يثبت فعلا أن داف يحبني ويريد الزواج مني. لم يجلبه الخاتم إليّ، بعيدا عن جيتاره عندما كنت

أدعكه أو أحدق فيه. ولم تثبت القوة أنها قوية جدا عندما تصادمت ممتلكاتي المادية وغير المادية؛ عندما أراد داف أن يعود إلى البيت من أجل الكريسماس. عندئذ لم أبالِ بما كان لديّ، فضة مادية أو محيط من نوع غير مادي؛ فقط أردت أن أموت في الأجازة. شيء ما كان خاطئا. فقط مختلط جدا ومشتت ومرتبك وخاطئ.

إخوة داف وأمه يريدونه من أجل الكريسماس، وكذلك أريده أنا. إنها مشكلة. يقول إنه سيظل ليومين – حتى صبيحة اليوم السابق على الكريسماس، ويعود بعد يوم الصناديق[37]. أريد أكثر من هذا، أستحق أكثر من هذا. لقد تعلمت كيف أُسقط هذه الأيام الثلاثة، مثلما تعلمت أن أُسقط كل شيء آخر يمكن أن يؤدي بي إلى إحدى الذكريات القديمة المؤلمة. لكني نسيت فجأة كيف أفعلها. نسيت لأن داف جعلني أعتقد أني لن أحتاج إلى ذلك مرة أخرى. كان دائما موجودا. وتحول شجارنا الذي بدأ بـ «مَن الأكثر حاجة إليك؟» إلى محاولتي الأولى للانتحار.

بينما يستخدم داف آخر مياه الاستحمام الفاترة، أجمع كل الحبوب المخبأة، الحبوب التي لم أستخدمها. الحبوب التي لم أكن بحاجة إليها بينما كان داف موجودا. عشرات وعشرات وعشرات،

37- يوم الصناديق يوم عطلة رسمية يحتفل به في المملكة المتحدة وكل الدول الناطقة بالإنجليزية باستثناء الولايات المتحدة ومعظم دول الكومنولث، يحتفل به في 26 ديسمبر من كل عام غداة عيد الميلاد، ويعرف أيضاً بعيد القديس ستيفن ظهر في إنجلترا خلال العصور الوسطى.

أنا واثقة أنها ستكون كافية. أنا واثقة جدا لدرجة أني أشعر بالإثارة ولا يمكنني الانتظار حتى يأتي الجميع ويجدونني ميتة، وعندئذ «سيشعرون بالندم». لست واثقة إن كنت حتى أريد أن أموت، أو إن كنت أريد فقط أن أغيب عن الوعي حتى يعود داف، رغم أنه لم يرحل بعد. في كلتي الحالتين أود راحة سريعة، لذا أبتلع حفنات من المسكنات، في جرعات كبيرة مبحوحة. لكن كل هذا يستغرق وقتا وداف واقف يقطر منه الماء في حجرة النوم قبل أن أنتهي من نصف المهمة. يتنفس بصوت عال وفي غضب؛ ينتزعها مني ويحاول أن يضع يده في فمي. وما يتمكن من الحصول عليه يلقى به من النافذة على أرضية المطبخ المبتلة. أقبض على حذائه الرياضي وأغمغم بكلمات غير مفهومة تبدو من بعيد أشبه بـ «أيها الوغد!». نصف عارية وسكرانة أتسلق الجدار؛ أصعد إلى السطح، متكومة حول نفسي تماما وغبية، كتلة ثملة من اليأس والخراب، تجمع البقع البيضاء الذائبة كطبق من الحليب المجفف أمامي. ألعقها من فوق القرميد، يهيج القيء بداخلي وأبتلعه بجنون، في نفس الوقت، غير راغبة في أن أبدو أو أكون على هذه الحال لدقيقة أخرى.

عندما عدت إلى حجرة نومي الكئيبة السوداء بعد أن سرت مع داف إلى المحطة في الصباح التالي، شعرت برغبة عصبية في الاتصال بجوان فورا. كنت بحاجة لأن أعرف أين ستكون خلال الكريسماس؛ حيث يمكنني أن أذهب وأكون محاطة بالحياة، على

أمل أن تعيد حياتي إليّ، الحياة التي أعرف بصدق أن داف وحده من يمكنه النفاذ إليها. الأمر أشبه بألاعيبي القديمة، مثل الوقت الذي اعتدت فيه أن ألعب دور الميتة كي أبقى حية، لكن الآن الأمر مقلوب؛ فأنا الآن أزين الجثة المتعفنة وأزج بها وسط الناس فقط كي أجعلها تبدو حية.

حدث شيء دراماتيكي عندما وقعت في حب داف، شيء أكبر من مجرد قصة حب. شيء لم يتضمن داف فقط. ذاب دمي المتجمد مثل القادم من البرد في الخارج ليجلس على البساط أمام النار. انفكت عضلاتي وتحركت. سمعت صوتي. سمعت ضحكتي البالغة المبحوحة والحادة لأول مرة عندما بدأ داف يخبرني أني جميلة. وبعد ذلك بدأت أصدقه، واعتمدتُ إحساسا شامخا بامتلاك ذاتي؛ لأني استطعت فعل كل هذه الأشياء السحرية. وفيما بعد صرت مستهلكة بأهميتي الخاصة. بدت توقعاتي السخيفة الموسوسة عادية تماما بالنسبة لي، لأني كنت أكثر سعادة من ملاحظة كم المقدار الذي يتغير. ومالم يدركه داف قط، أن هذا كان بالفعل نتاج فعله غير المقصود. كان الحب إحساسا بالغ القوة على شخص حذر حد الغثيان مثلي كي يتعامل معه. أخبرني كم يمكن أن يبدو مذاق التفاعلات الإنسانية لذيذا، لكنه أظهر لي كم كنت طفولية عاطفيا، وأن التفاعلات الحادة العميقة مازالت تتلكأ بداخلي. أريد أن أتزوج بينما لا يناسبني حتى فستان إشبينة العروس.

ليلة رأس السنة عام 1995، نمت مع عازف الجيتار في فريق سايكو إليوت، الذي بدا مثل كتلة من الثلج تدخلني على فراش بارد، في بيت غريب. في الصباح، عندما كان كل ما عليّ أن أُظهره لهذا الخرق القاتل للثقة هو دوار الشراب، أخبرني نثار الثلج العالق في داخلي أي حمقاء كنت.

اكتشف داف الأمر بعد يوم أو اثنين. قرأ يومياتي بينما كنت أعد له العشاء (ربما لأني لم أقم بأي محاولة لإخفائها)، لكني لم أكن لأخبره بالأمر مباشرة. قال إنه آسف لاضطراره لقراءة أشيائي وبدأ يبكي. مارس الحب معي وذقت دموعه، دافئة مثل الدم، وهي تستقر على وجهي وفي فمي. جعلني هذا أشعر أني صغيرة وجامدة، كقرص من البلاستيك مكسو باللحم. فكرت كم أنا متوحشة. لماذا لا يكون هناك شيء في توافق معي أبدا؟ لماذا يمكنني أن أحب بهذه الكثافة وأكره بهذا الثقل ولا أشعر أبدا أنه إحساس متبادل أو متوازن؟ لماذا أنا غريبة هكذا؟

14

كانت أمي أكثر غضبا من مارتن، وهو ما لم أفهمه فعلا، عندما دخلا صبيحة يوم سبت. صفعت رأسي، وفي البداية ظننت أنها سكرانة لأنها كانت تبدي ذلك الوجه البليد المشاكس الذي كان يظهر عندما تشرب براندي أكثر من اللازم. ثم دعتني باللصة. كان مارتن مؤدبا طوال التحقيق كله، «كما ترين يا ريبيكا، أنت لا تسرقينني أنا وحدي، بل البنوك والمحلات التي اشتريتِ منها الأشياء، إنها جريمة خطيرة جدا.» لم يرفع صوته ولو مرة، وهو ما شعرت نحوه بالتقدير، رغم أنه جعلني أشعر أني أكثر شرا. انتحبت في إيماءة اعتذار لم تحقق الشيء الكثير، لأن مارتن أتى بكل العقلانية التي لا تطاق: «الدموع لا تجدي معي.» حاول وجهي الخالي من التعبير أن يسأل: «ماذا تريدني أن أفعل؟». قال: «لديك عقل، استخدميه..» قبل أن يربت على رأسي ويمضي لينتظر أمي في السيارة. عندئذ جفت دموعي، وصررت غاضبة مثلها، وكشفت عن أسناني مثلها تماما. قالت: «لماذا فعلتِ ذلك؟ أنت تعرفين أن مارتن ليس شخصا سيئا.» قلت عابسة: «لأني لا أملك أي مال. لأني لا أملك أي ملابس. لأني كنت في الثالثة عشرة آخر مرة اشتريتِ لي فيها شيئا. أعرف أن هذا ليس عذرا للسرقة،

لكني لا أرى شيئا آخر يمكنني أن أفعله.»

طلبت أمي أن أسدد المال من منحتي التعليمية المتوافرة التالية، التي كان مازال أمامها بضعة شهور أخرى، لكن في تلك الأثناء اشترت لي فستانا، أصغر مني بمقاسين، من أجل عيد الفصح.

استمرت علاقتنا أنا وداف حتى أبريل، الذي كان بالأساس نهاية السنة الدراسية. طوال ذلك الوقت، شعرت كما لو أني قد صدمت إصبع قدمي ولبثت معلقة في المقدار الصغير من الوقت منعدم الإحساس الذي تمر به قبل أن يضربك الإدراك ويبدأ الألم غير المحتمل الذي يجلبه معه. حاولت أن أتفادى الدمار، أن أختبئ من المقدور. حبس حياتك عن العيش دواء مر، إنها محاولة المستحيل وعادةً لا غاية من المحاولة. كأنها مضاجعة من أجل العذرية.

أجلس في البيت البارد المتجمد أرتجف؛ لقد استيقظت فجأة أو أنا على وشك السقوط في النوم وأكره المكان. أفتقد داف كما افتقدته دوما؛ وفقط الآن أعلم أنه لن يأتي؛ أعلم أني لن أراه مرة أخرى أبدا. أشرب أكثر مما شربت من قبل. أخرج. أترنح في طريقي إلى تروركي وأدخل الحانة. أجلس مع أصدقائي الجدد وأشرب الجعة بسرعة. أشرب أيضا الويسكي الذي يأتي من بيت أمي. يضحك أصدقائي وأضحك معهم، كما لو أن كل شيء على ما

يرام. نعم، ثيابي زاهية الألوان وماكياجي لطيف؛ وألعب البلياردو مثل كل الشباب السعيد الطائش؛ ولا أحد يعلم أني ميتة بالداخل. بالداخل، يفوح جسدي بروائح ثلاجة الموتى وقلبي يجف، ويغدو أقسى طوال الوقت حتى أنه في النهاية سيكون حجرا من جديد؛ كما كان دائما قبل أن يجيء داف. أشعر أني كمنتحر بلا رسالة.

عندما كنت متمددة في حوض الاستحمام ذات مساء، أول استحمام لي منذ ثلاثة أسابيع على الأقل، جرحت نفسي متعمدة. كان الحمَّام يخضع لعملية إعادة تزيين؛ لسبب ما غير معروف جاء مارتن صبيحة يوم أحد وانتزع كل ورق الحائط؛ فذكَّرني بحياتي. مهما كان عدد الأصدقاء الذين تعرفت عليهم وضحكت معهم، ومهما كان عدد نسخ مجلتي التي بعتها، كان الشيء الوحيد المهم قد رحل بعيدا. كانت غلطتي، لقد انتزعته بقسوة مني. لم يكن هناك أي تفكير مطلوب من أجل هذا الموقف. أخذت الشفرة من الموسى، نفس الموسى القابلة للاستعمال مرة واحدة التي كان داف سيحلق بها ساقيّ قبل شهرين. قطعت عمدا فخذيّ من جانب إلى الآخر، حتى اختفى الجلد الأبيض والماء الصافي مثل كل شيء آخر. لم يؤلم العقاب الذاتي، لم يوخز، بل بدا أشبه بمصدر للارتياح، أشبه باعتراف. كان الدم في كل مكان، وهو ما كنت واثقة أنه لم يأتِ مني. هل فعلت ذلك لأجرح نفسي أم لأثبت أني مازلت حية؟ أيا كان السبب فلم ينتج عنه أيّ من الاثنين. استمررت في التشويه، لكن عندما أصبح النصل ثلما عرفت أن

عذابي قد بدأ لا محالة.

كان رد فعلي تجاه التسبب في الانفصال أني قد أقلقت يديّ القدر وأن حياتي ستعاني إلى الأبد. لقد ألقيت الفرصة الوحيدة للسعادة التي نلتها من نافذة الطابق الرابع. كان الرد هو المزيد من النوم والمخدرات والكحول، لأني في تلك اللحظة لم يكن بمقدوري أن أتحمل التفكير فيما فعلته في داف وفي نفسي.

ذات مساء دعيت إلى حفل، لكن قبل أن أغادر الحانة كنت قد نسيت من دعاني، والعنوان الذي أعطوه لي. لم يكن لهذا أهمية كبيرة؛ تتبعت الآخرين والموسيقى إلى 7 شارع سارون، تروركي، ووجدت المكان. في تلك المسيرة وجدت بعض المخدرات المجانية. «انظري إلى ذلك الرجل..» قالت لي فتاة بدت أصغر بكثير من أن ترتدي مثل هذه التنورة القصيرة، وهي تشير بإصبعها. «إنه ينفخ دخان ورقة بخمسة جنيهات من أنفه.»

"إنه بعشرين.." قال أحدهم بفظاظة، وهو يناولني الأمفيتامين.

"في صحتك.." رددت ببساطة كأني كنت أتوقع هذا. أخذت خطين، استنشقتهما وتقدمت إلى الحجرة التالية.

ثمة كتلة سوداء كانت متكومة على الأرض، وزاد من سوء منظرها سجادة بنية مائلة للرمادي، وكانت تتحدث إلى الباب.

حدقت فيه للحظة وبعد ذلك جاء ذكر يرتدي حذاء ثقيلا، أسود العينين، طويل الشعر، مسطول، موشوم، جذبني للرقص قائلا: «إنه فقط جاريث، وهو يفعل هذا طوال الوقت.» الضوء الرعاش، الومضات البيضاء والسوداء لأذرع الناس وسيقانها، الموسيقى الهادرة، كورنيش الستار الساقط من فوق النافذة ليخبط البنت الغبية على رأسها، كل هذا منحني إحساسا وهميا بالأمان الذي تمنيت لو استطعت أن أعيش به دائما. أردت أن أسقط على ظهري، وأعرف أن واحدا أو كل هؤلاء الناس الذين لم أعرفهم منذ آدم سيمسك أو يمسكون بي. كنت أعرف أنهم سيفعلون. لكنهم لن يفعلونها مثل د... ولم أستطع السقوط لأني كنت بالفعل على الأرض، ألف سيجارة حشيش وأتحدث، أتحدث، عمَّ أتحدث لكل هؤلاء الناس؟ وأبتسم بصعوبة شديدة، كانت قد بدأت تؤلمني، وأتحدث كثيرا جدا حتى أن فمي بدأ يرغي ويزبد، وعندئذ أرى بعضا من ألواني المفضلة في الحجرة المجاورة، وأذهب إليها.

أخبر بعض الناس أن برنامجي التليفزيوني المفضل هو (باتمان) وأبدأ في الرقص من جديد، ثم يلتقط أحدهم صورة لي وأتحدث معهم عن التصوير الفوتوغرافي. ثم آخذ ورقة العشرين جنيها مرة أخرى، وبعد ذلك أرقص مرة أخرى قليلا، يلمس أحدهم عنقي، أعتقد أنها بالصدفة، وأطفو كبالون من الهليوم وأصطدم بالسقف بينما أنا مازلت أتحدث وأتحدث وأتكلم. أتحدث إلى فرقة تقدم الموسيقى الصناعية اسمها شاتنر كي يأخذوني معهم

كمغنية رئيسية. يقولون إني أستطيع لو أعطيت انطباعا جيدا في تقليد بيورك[38]، لذا أستمر في التحدث بلكنة آيسلندية، ويناولني أحدهم زجاجة فودكا...

أذهب إلى شارع سارون كل ليلة بعد الحانة، وكل ليلة هناك حفل. كل ليلة هناك مخدرات، وكل ليلة هناك كحول. يستغرق الأمر ليلتين كاملتين قبل أن أكتشف من يملك البيت بالفعل. أشتري مؤونتي الخاصة من الأمفيتامين والحشيش عندما أتمكن من الحصول على ثمنهما؛ وعندما لا أستطيع آخذ كمية وافرة من عقاريّ الباراسيتامول والديازيبام. تجعلني البيرة أزيد في الوزن، وأعتبر كل موزع صغير لعقار تيبازيم صديقا شخصيا. أعيش في بيت الغريب ذاك مع كل هؤلاء الغرباء الآخرين ويعجبني هذا كثيرا.

كنت أصحو أحيانا واعية بالكاد وبما يكفي لفهم أني قد نمت مع أحد الغرباء. كنت أجري إلى المرحاض أو إلى أقرب مكان مناسب وأتقيأ كل الدواء السيء والأفعال السيئة من جوفي. كنت أشعر أني متلبسة جدا بروح الضحية ونادمة جدا وعاجزة جدا، حتى أني كنت أود أن أجري وأختبئ من جديد. ولم يكن هناك أي

38- بيورك فنانة طليعية آيسلندية من مواليد 1965، مغنية وكاتبة أغاني وملحنة وممثلة ومنتجة موسيقية. اشتهرت بأسلوب غنائها التعبيري ونوعية صوتها السوبرانو المتعدد المستويات، والمتنوع وبأسلوبها الانتقائي للموسيقى والذي يتضمن تأثرا بأنواع موسيقية مختلفة.

مكان يمكنني الجري إليه دون الشعور بأني أسوأ على أي حال. كنت أختبئ خلف جلدي، المثقوب بالفعل. لا خيار غير الاختباء في رأسي الذي كان مريعا مثله مثل أي مكان آخر، لذا كنت أجعله يتنكر من أجلي، من المكان الكابوسي الكابي الذي كانه غالبا ونهائيا وحاليا، إلى مكان مبهج بشكل معقول، باستخدام هذه الأشياء الكبيرة المجنونة المسماة بالكحول والمخدرات. كان كل شيء يعيدني إليه، لأن كل شيء كان أكثر فظاعة من أن تراه وأنت غير مسطول. الأجزاء المرعبة وسط ذلك والتي كانت تقودني إلى أقرب حانة، هي الذكريات؛ لأن كل الضحك والمتعة وأشكال الإثارة الرخيصة والسعادة التي ربما كانت تدور جيدا، التي توحي صوري أنها كانت تدور بينما أنا أشرب، كانت غير قابلة للتصديق تماما. كانت الذكريات هي الجزء الأقرب لنوبة الصرع؛ الاستيقاظ إلى جوار الغرباء الذين جعلوني أتقيأ كان هو الجزء الأفضل وسط الأجزاء الأصعب التي يمكنك أن تمر بها مع نفسك.

يمكنك أن تكره نفسك كثيرا لدرجة أن تضع مسدسا في فمك بطريقة لا شفقة فيها على الذات تماما، وتفجر رأسك نفسها. ورغم ذلك فأنت تريد العيش، فقط كي تتمكن من تذوق شربة من الجعة الباردة تنسكب فوق حلقك، وتدفئ جسدك إلى درجة الذوبان والنسيان، مرة أخرى واحدة. ولتنكح نفسك مرة أخرى من جديد. ولتنكح شخصا آخر، وتكره نفسك بحمية من جديد. وترغب في قتل نفسك من جديد. باختلاف صغير عن نصل

الموسى، أفلح هذا العقاب. إفساد كامل وتام لنفسك حتى تصير غبيا، صانعا سمعة، واجهة خطيرة بشكل مخيف، وهو الأسوأ من الطريقة التي بدأت بها الشرب في المقام الأول، فقط على أمل أن يبدأ الآخرون في كراهيتك بنفس القدر الذي تكره به نفسك. والآن، هذا هو تشويه الذات.

عندما أتت منحتي للفصل الدراسي الصيفي، ورغم أني لم أذهب إلى الكلية طوال الشهرين الماضيين إلا لأحضر امتحانين تجريبيين، وضعتها في البنك وأخبرت أمي أنها لم تأت بعد. أبقيتها هناك لأسبوعين، وسحبتها في المساء السابق على مغادرتي إلى مهرجان جلاستونبري. صبغت شعري بلون أخضر فاتح، خصيصا من أجل هذا الحدث؛ وقضيت أغلب عطلة نهاية الأسبوع غير عارفة أي فريق كنت أحاول مشاهدته، ومعتقدة أن كل فتى يمر بجواري هو داف بشعر مقصوص، أو داف بشعر مصبوغ باللون الأبيض، أو داف بحذاء رياضي جديد.

ضربة الشمس، وعقار LSD، والمراحيض السيئة، والقيء، والقبض على أصدقائك لقيامهم بالتبول في منتصف الطرق الرئيسية؛ كل الأشياء التي تتحدث عنها الصحافة الموسيقية وكأنها سيناريوهات لا تحدث إلا في مقاطعة سومرسيت قرب نهاية يونيو، لم تصنع فارقا كبيرا عن الشهور الثلاثة الماضية من حياتي. الذكرى الوحيدة الواضحة التي أمكن لي، أنا وأغلب

الأشخاص الآخرين في الحافلة العائدة إلى الديار يوم الإثنين، الاحتفاظ بها ربما هي وصول فرقة (سكانك أنانسي) متأخرة ثلاثين دقيقة على خشبة المسرح، وتمكنهم فقط من أداء أربع أغنيات صباح يوم السبت. أتذكر ذلك فقط لأني كنت قد قمت بترتيبات لمشاهدة هذا مع الفتية من فرقتي، ولأنه كان صباح سبت رصين إلى حد ما ومحبط. وعندما غادرت الشخصية الأبنوسية المشذبة المعروفة باسم (Skin)[39] خشبة المسرح، عدنا أنا وراي وستو إلى خيمة البيرة.

عند العودة إلى وديان جنوب ويلز، كان لي تشوش وبايرون ديفيز، وهما رجلان كنت قد تبادلت معهما الحبوب والتحيات، يتناولان جرعات زائدة من الهيروين ويشنقان نفسيهما. وكانت أمي تجري مكالمة هاتفية مع كلية رونذا لتسأل أين كانت منحتي. بكيت يومين كاملين عند عودتي، وكآبة سميكة جافة تعمل عملها حولي، بينما أنا أخرج ما في الداخل، على نحو متقطع. المحاولة الأخيرة التي قامت بها أمي لتنتزع مني نوعا ما من الاعتذار أو التفسير صارت أخيرة لأني لم أكتف بإخفاء رأسي والنواح على اللاشيء؛ ذلك النوع من اللاشيء الذي يعني في الحقيقة كل شيء. ليس هذه المرة. صرختُ بصوت أعلى منها «دعيني وحدي» وألقيت بعض المجلات والصحف في أرجاء الحجرة.

39- المغنية الرئيسية لفرقة سكانك أنانسي، اسمها الأصلي ديبورا آن داير من مواليد 1965.

ألقيت قفص جرذي نحوها ودفعتها. عندئذ سقطت على الأرض بمحض إرادتها، لتجعل الوضع يبدو أسوأ مما كان عليه بالفعل، وقلت في عقلي: «سبعة عشر عاما، تطلب مني الأمر سبعة عشر عاما لأصبح في نصف سكرها وأرد صفعتها. سبعة عشر عاما وقت طويل. لقد أبليت بلاء حسنا يا ريبيكا.»

بعد بضعة أيام استيقظت على بلاط مطبخ بارد، أكثر ابتلالا بقليل من قميص متسابق مبتل. أغشى الضوء القادم من مصابيح السقف عينيّ المتورمتين. كان هناك كلب يأكل وفاح الطعام بروتين العيش القذر. وقف أحد غرباء شارع ستون أمامي، ومعه دلو بلون الخراء يخفي وجهه. صداع رهيب، وألم في قفصي الصدري منعاني تقريبا من فهم أني استيقظت للتو من غيبوبة جرعة زائدة من الباراسيتامول. فكرت في داف. عادةً ما كنت أفعل ذلك عند الاستيقاظ، قبل أن أشرع في الشرب لكي أوقف التفكير فيه. هذه المرة فكرت كيف أني كنت أقتبس الوجود من ماكينة حياة يتحكم هو فيها؛ وكيف أني أخذت منه الكثير بالفعل، ومع ذلك مازلت أتنفس.

كنت أحتفظ بصورة لداف مسنودة أعلى منبهي. نسخة مميزة بالأبيض والأسود، جعلته يبدو، بطريقة لائقة، كما لو أنه خرج مباشرة من صفحات مجلة (ڤوج). كانت قد التُقطت خارج كلية رونذا، حيث مال مستندا بشكل مستفز على جدار وشعره مبطط ومجعد من مطر الصباح. التُقطت خلال عمل وحدة تصوير، عندما

خرجت مجموعة منا للتجريب في الموضوعات، وبدا داف كموضوع صريح. أتذكر الكثير من صور داف. جالسا وسط العشب ببنطلون (لي فايس) كان أبوه قد احتفظ به منذ السبعينيات وسويتر استعاره مني. احتفالات عيد ميلاده الثامن عشر في النادي البحري، حيث امتلأ وجهه كله بأحمر شفاهي، لأنه لم يتوقف عن تقبيلي. لم تنجُ إحداها من شجارنا. كانت لدى داف عادة تمزيق الصور، لأنه كان يعرف أنها ذات قيمة عاطفية بالنسبة لي. وضعت الناجية الوحيدة في إطار فضي أعطاه لي جداي. بدا دائما كهدية لا جدوى منها، حتى جرى تحميض تلك الصورة.

كان هذا يعني أني لو نمت في حجرتي وأيقظني المنبه، سأصحو على مرأى داف، وكذلك على التفكير فيه. أدرتها في الثالثة صباحا ذات ليلة، لأنها ظلت تشتتني عن تنظيف حجرتي. ثم عدلتها مرة أخرى لأن الحجرة بعد دقيقة بدت أكثر فراغا مما كانت عليه عادةً. ثم لم أستطع التوقف عن النظر إليها، فقلبت وجهها إلى أسفل؛ وهو ما جعلني أشعر بالغثيان. مثل المرات التي كنت أستيقظ فيها على شخص آخر غير تلك الصورة، مثل فيلم يقوم فيه المحامي أو الطبيب النفسي بوضع صورة الزوجة والأطفال في الدرج عندما تدخل المريضة الشابة. أرفعها مرة أخرى وأشعر بالارتياح. ثم أنظر بالفعل إلى الموضوع وأشعر بالغضب، من أي شيء لست واثقة تماما، لكن الغضب يجعلني أرفعها وأسددها نحو الحائط. لقد أصبح هذا الفعل الانعكاسي

العضلي غير قابل للمقاومة. بدأت أحطم الزجاجات بمجرد استهلاكي لمحتوياتها وألقي حوامل الميكروفونات في كل مكان أثناء حفلات فريق شاتنر. بدأت تظهر قطع صغيرة من الاهتياج والإحباط خلال كل شيء أفعله. ومع ذلك تمكنت من الاحتفاظ بالصورة، بالضبط عندما كنت على وشك ترك كل شيء يرحل. بينما كنت على وشك التخلص من آخر تفصيلة أعرفها عن داف، أرعبت نفسي حتى تهدأ. جلست عند قدم الفراش والصورة في يديّ، والدموع النازلة من وجهي تصنع خطوطا عبر بقع أحمر الشفاه على الزجاج الخارجي. أعدتها. عندما انتهيت من البكاء أكملت التنظيف بالمكنسة الكهربائية، محمرة العينين.

فقدت داف لأني كنت أشرب الكثير من الويسكي، وأتجرع الكثير من الأمفيتامين، وكنت غير مخلصة له. ولأني كنت غير مخلصة لداف، شربت الكثير من الويسكي وأخذت خليطا مجمعا من المخدرات، لأني أردت أن أتجاهل ما قد حدث. ولأني أنفقت طاقتي كلها في ادعاء التجاهل، توقفت عن العمل. توقفت عن دراسة الرسم واللغة الإنجليزية وعلم النفس، ونسيت ما كنت قد تعلمته بالفعل. لم أستطع العودة إلى الكلية في سبتمبر، لأن عقلي كله كان قد تحول إلى كتلة هلامية من المواد الكيماوية. كانت تلك الصورة لقطة ثابتة اقتنصت حياتي عندما كنت شخصا آخر.

عندما استيقظت في الرابعة من مساء اليوم التالي، عددت عملاتي المعدنية، وتوجهت إلى الحانة.

15

يوم الكريسماس عام 1995، في لحظة ما بين السابعة والتاسعة مساء، كنت جالسة في فندق ليون، أحدق في القميص الجديد الذي يرتديه صديقي أندرو. كان أحمر بنقوش سوداء وكمين قصيرين، أبشع شيء رأيته في حياتي. قلت: «هذا القميص فظيع يا رجل!» فقال: «أوه، ظننت أنه لطيف إلى حد كبير.»

لم أره قط يرتديه مرة أخرى. كان أندرو، أو ستيشن كما كان معروفا في تروركي وليس في تونيبانديي حيث كان يعيش، أفضل أصدقائي، رغم أني لم أعترف بهذا قط، جزئيا بسبب ذوقه في الملابس. كان عضوا في فريق موسيقي محلي قابلته في النادي البحري وعملت معه لاحقا على مجلة موسيقية للهواة.

السبب في قيامي بالتحديق بدلا من الشرب كان ببساطة أن يديّ كانتا أبرد من أن تلتقطا القدح الكبير دون أن يقع منهما. ولعلي كنت قد شربت ما يكفي بالفعل.

كانت أمي قد ذهبت في أجازة إلى كريت أو ربما إلى فويرتيفنتورا، لذا كنت مقيمة في بيتها، أطعم القطة. ذهبت إلى بيت أخي لتناول العشاء، الذي كنت أعرف أنه سيكون فظيعا،

لأن مشاركة عشاء الكريسماس مع أشخاص تعرفهم بالكاد شيء فظيع. كنست له حجرة معيشته بالمكنسة الكهربائية واكتشف أني أدخن، لأن أصابعي كانت صفراء من النيكوتين على نحو منفر. شربنا الكثير من الجعة ذلك الصباح، ولم أشرع قط بالفعل في تناول العشاء. أخذتني كاثي إلى البيت في حوالي السادسة مساء، ربما لأنهم كانوا سيخرجون. ولو لم يهاتفني ستيشن ليطلب مني القدوم وأخذ هديتي في فندق ليون، بينما كنت جالسة وحيدة، دون كحول وسكرانة، أشاهد حلقة مسلسل (الحمقى فقط والخيول) الخاصة بالكريسماس، لعلي كنت قد لجأت إلى الباراسيتامول.

تجمدت تقريبا خلال المسيرة الطويلة، لذا استغرق الأمر مني حوالي نصف ساعة إلى جوار جهاز التدفئة، قبل أن أتمكن من فض غلاف الهدية. كان جيتارا لعبة، شيء منمنم له أزرار؛ عندما ضغطته أصدر صوتا متموجا على طراز عزف ستيف فاي[40]. كنت في ذلك الوقت جادة في بدء العزف على الجيتار، لذا اعتقد ستيشن أن هذه الهدية ستكون شيئا طريفا لطيفا. بدت هكذا لكوجينز؛ شخص عرفته من كل حفل ذهبت إليه تقريبا. بينما كنا نشق طريقنا إلى الحانة التالية، بدأ يدفع بالجيتار في وجوه المارة، ويضغط كل الأزرار معا، لأننا في الكريسماس بالطبع!

40- عازف جيتار أمريكي شهير من مواليد 1960.

كنت قد أكملت فصلي الدراسي الأول في حلقة دراسية عن الإعلام والاتصالات والإنتاج في مركز امتياز ميد جلامورجان للفن وتكنولوجيا التصميم، التي عُرضت عليّ في سبتمبر. لا أعرف بالفعل كيف حدث ذلك؛ أظن أن الشراب نفد مني ذات يوم وقمت باتصال هاتفي. كنت مازلت أشرب، لكن لا بد وأنه كان مقدارا خفيفا؛ لأني بدأت أتذكر الأشياء؛ مثل أين كنت الأسبوع الماضي، أو أين كنت ليلة الأمس. كان شعري أحمر ومضفرا في خيوط كثيرة الآن، بعد أن شق طريقه بصخب عبر ألوان الطيف. كنت سمينة؛ يقول الناس إني لم أكن، لكني كنت: مقاس أربعة عشر. شكل غريب من المقاس أربعة عشر؛ حيث كان خصري ووجهي فقط هما الحاملان لتأثيره. توقفت عن ممارسة الجنس بانتظام؛ وبدأت أعمل في ساعات إفاقتي من التاسعة إلى الخامسة. أكتب لمجلات موسيقى الهواة، أكتب نصوصا، أصنع أفلاما، أعقد صداقات مع كل هؤلاء الناس الذين كانوا يسافرون من كافة أنحاء جنوبي ويلز ليصلوا إلى هذه الكلية الفنية على الجبل.

شربت الكحوليات وتناولت المخدرات كي أنسى الأشياء؛ وبعد عام من العيش بشعور متلعثم وغير واضح بالأشياء، أصبح من المريح البدء في التذكر. لم يكن كل شيء واضحا، لأني كنت مازلت أصنع من كل خميس وجمعة وسبت جلسة شراب. لكن هناك اختلافا كبيرا بين الخروج بعد ظهر الأربعاء، والشرب حتى تتقيأ، وشرب المزيد ثم الاستيقاظ في مكان غريب، وبين

البقاء في البيت يوم أربعاء، والاستحمام ثم الذهاب إلى الفراش في صحبة كتاب، والاستيقاظ والذهاب إلى الكلية دون دوار الشراب المألوف. في الحقيقة كنت أحضر في أمسيات الأربعاء لقاءات «قَدْر الصهر» التي كانت جزءا من عمل خيري لصالح الفرق الموسيقية غير المسجلة أقامه المجلس من أجل أن يحصل المشهد المحلي للفرق الموسيقية على إمكانية أسهل للوصول إلى الأماكن والدعاية. كنا أن وستيشن ننتج مجلة خاصة بهم، وعملنا كمروجي عروض لفترة، وهو ما ساعد بشكل كبير في مسألة العلاقات من أجل البزنس وخلافه.

كان هناك جدل كبير حول إن كنت واحدة من عشاق وأتباع الفرق أم لا؛ وبطريقة ما طفولية ومتلعثمة، كنت أغازل حالة مشجعي الفرق كي أكتب عنها في العمق. لكني لم أتبعها. بأخذ حالة المغنية كورتني لوف[41] كمثال في هذا الموضوع، سأقول إني قضيت الكثير من الوقت مع الموسيقيين، وانتهى بي الأمر إلى النوم مع بعضهم. كان يمكن أن يسير الأمر بنفس الطريقة لوأجريت مقابلات مع نافخي الزجاج يوما بعد يوم.

إن تذكر أشياء مثل ما قلته ليلة الأمس كي تجعل ليزا تخر على ركبتيها ضاحكة مهم إذا تذكرته. وإذا لم تتذكر ما كانت

41- مغنية، كاتبة أغاني وممثلة أمريكية من مواليد 1964. اشتهرت بزواجها من المغني الرئيسي لفرقة نيرفانا كيرت كوبين.

تدور حوله قصة سوزان بالأمس، فهو ليس مهما؛ وسوزان لم تكن إلا وجها. وهذا هو نوع الأشياء التي تجعل الحياة عادية: ألا تبالي بما قالته سوزان لأنك أكثر قلقا بشأن صداع رأسك.

الشراب، مثله مثل أغلب المخدرات، لا يحل شيئا قط. إنه يملأ فجوات المراهقة التي تطلب أنت منه أن يملأها، وفي المقابل يطلب منك أن تستمر في استخدامه. وبدافع الامتنان، ستفعل، فقط كي تجد أنه -ربما بدافع امتنان أكثر من اللازم بعض الشيء- يستمر في ملء الفجوات؛ الفجوات التي لم تكن تعرف حتى أنها لديك. الفجوات التي يجب أن تُملأ أساسا بلحظات الإفاقة. لذلك عندما يتمادى الأمر وتحتاج إلى الخروج، يجب أن تعمل عائدا إلى الوراء، فاتحا كل وأي فجوة ملصوقة بالخميرة، وتعيد ملأها بنفسك؛ وهو ما يمكن أن يستغرق أعواما، بينما الشراب يعرض عليك أن يفعل هذا في أسبوع. عند الشرب، تتوهم أنك تنمو بلا ألم كي تصبح شخصا بالغا، لكنك في الحقيقة تغدو أصغر، وأصغر.

والفجوة الكبيرة، الفجوة الأولى، كانت ما أردت أن أنساه، ولم أفعل لأن ما أردت أن أنساه حدث قبل أن أبدأ في الشرب. لذلك عندما استطعت أن أسمي نفسي سكيرة اجتماعية كتوصيف مقابل لكلمة مدمنة، كنا أنا وداف مازلنا منفصلين. وكانت الذكريات التي لديّ أطيب من أن تمضي؛ وفي إفاقتي الآن أستسيغها، دون أن أجرؤ على التساؤل عما كان يمكن أن يحدث لو كنت قد قتلتها.

وجدت فتاة ذات يوم، تنام في فراشي، تأكل ما لديّ من طعام قليل وترتدي ما لديّ من ثياب قليلة. ميني واحدة من هؤلاء الناس الذين يظهرون من ثنايا وقت في حياتي لم تكن الأشياء فيه واضحة بدقة. مثل الوقت الذي ظهرت فيه جوان وجولين، يمكن أن يكونوا مرعبين إلى حد ما في البداية لأنك لا تعرف حقيقةً كم يعرفون عنك. كم مرة سكرت فيها في حضور هذا الشخص وأفشيت ببعض الشكاوى التي لا رجعة فيها بشأن حياتي المقرفة؟ أكثر من ذلك كان الحال مع ميني هو: «حسنا، إذا كانت تنام عارية في فراشي وتشاركني ثيابي الداخلية، وأمها تشكو من وجودها معي، فهل لديّ بالفعل علاقة جنسية معها؟»

الحقيقة هي أن ميني كانت فتاة لا تُحتمل، أصغر مني بأربعة أعوام ولديها عادة كذب ملازمة لها. كانت تسرق أشياء الآخرين، والتي لم تكن ذات أي نفع لها، تتوق بقلق للاهتمام أينما ذهبت، وتبني سمعة وزنها 100 طن بين كل رجل وآخر في وديان جنوبي ويلز. وكان عليّ أن أعترف، كما لم أستطع قط مع ستيشن، أني أحببتها كما لو كانت أختي. كان هناك شيء ما بها لم يكن من الممكن لأي ممارس عام أن يحدده جعلني أعتقد أنها كان يمكن بالفعل أن تكونه. السلوك: المتطابق.

كان الجنس والأكاذيب المحيطة بها يعميان العين غير الخبيرة، لكن هؤلاء الذين يعرفون البؤس الحقيقي يمكنهم أن يخترقوا

بنظرهم طبقة سميكة من التراب. كثيرا جدا ما يجري الخلط بين البراءة والاستهتار. داخل درع الجهل الذي عرف أغلب الناس فيه ميني، كان بإمكاني رؤية طفلة تحمي نفسها من الشظايا المتطايرة للقذائف المنتظرة أن تقطع ضحايا الواقع الغافلين. بالطبع، لم يكن أي من هذا إدراكا واقعيا لحظيا. لوقت طويل سرت مثقلة بميني على ذراعي، دون أن أعرف السبب تمام المعرفة. محرجة من أن يراني أحد معها عندما كان أصدقائي الآخرون يمرون، منزعجة أحيانا من هرائها ورائحة قدميها النتنة؛ لكن متحيرة غالبا ومتسائلة إلاما تستمر تلك السلسلة الثقيلة التي تربطنا سويا. تدريجيا بدأت أفهم أن شخصيتينا حبيستان في نفس القفص، حيث بدا غالبا كما لو كنا في معركة مع بقية الجنس البشري. كانوا جهات الدفاع التي من الأرجح أن تؤذي لا أن تساعد، وأنا متأكدة إلى حد كبير أن النظر في صورتي في المرآة هو الذي بدأ يجذبني خارج لعبة الأستغماية القائمة على شرب الكحول.

ستيشن وميني. هكذا سارت الأمور إلى حد كبير لعام أو نحو ذلك. أحببت ستيشن وأحببت ميني. أحبتني ميني وكرهت ستيشن. أحبني ستيشن وكره ميني، ومع ذلك عشنا فعليا معا في حجرة نومي الخاضعة للكولاج، أغرب ثلاثي من الأصدقاء على الإطلاق، ربما.

16

أثناء الانخراط في لقاءات «قدر الصهر»، نجد أنا وستيشن لدينا اهتماما خاصا بفرقة شباب يدرسون في النموذج السادس[42] كان يطلقون على أنفسهم وقتها اسم «يوفوريا»، غالبا لأنهم جيدون ومتحمسون والمغني الرئيسي متورط شخصيا مع ميني. في أبريل 1996، عندما كانت يوفوريا قد تحولت إلى (جاش)، نقوم أنا وستيشن باستعارة المغني مارك وعازف الجيتار ويل، في محاولة فاشلة لتكوين فرقة تؤدي أغنيات البانك الشهيرة تحت اسم (أليسونز تامبون). يوم عرضنا الأول والأخير في ملهى جريجسون بمدينة بورث، هو أيضا اليوم الأول من أجازة عيد الفصح لعامي الثاني؛ لذا نقرر أنا وستيشن أن نحتفل طوال النهار بشرب جعة (جاجوار) من سوبر ماركت (تونيباندي جيتواي). نقابل مارك وويل المستعدين خصيصا بقمصان فرقة مانيكس وبامبكينز، في الثامنة مساء. ثم ندمر أي سمعة محتملة كانت لديهم بمحاولات بشعة لغناء **"Pretend we're dead"**

42- في أنظمة التعليم في إنجلترا وآيرلندا الشمالية وويلز وبعض دول الكومنولث، يمثل النموذج السادس عامين من التعليم الأكاديمي لما بعد شهادة الثانوية العامة، حيث يستعد الطلاب لامتحانات المستوى المتقدم.

وأغنيتيّ فريق هول: **"Miss World" و"Anarchy in the UK"**.
أقنعت ويل أن يسمح لي بالمكوث في بيته تلك الليلة، نتيجة سكر شيطاني، زاعمة أني لم أقم قط بالسير إلى البيت مسافة أبعد من يستارد. وسمح لي. وأتذكر اللحظة التي جلست فيها على فراشه بينما كان هو يختار أسطوانة. التقطت ربطة عنقه الخاصة بمدرسة تونيباندي الشاملة من وسط تل ملابس وأمسكت بها، جعلتني الخطوط الحمراء والزرقاء والبيضاء المائلة أشعر بالدوار، وجعلت كلمات مثل "لا ينبغي بالفعل أن تكوني هنا" تدور حول رأسي، وبعد ذلك بدأت كورتني لوف تغني **"Miss World"** أفضل مما يمكنني أن أفعل ثلاث مرات على الأقل.

بالتالي، وبطريقة ما، أمكث في بيت ويل حتى الأحد التالي، آكل الجبن النباتي على الخبز المحمص، ولا أستخدم الحمَّام إلا بينما تكون أمه في العمل؛ لأنها ويا للدهشة، لم تدرك أني موجودة، وتلك هي الطريقة التي يريد بها ويل أن يسير الأمر.

كان مارك وميني يبذلان ألعن ما فيهما كي يوفقا رأسين في الحلال منذ الكريسماس السابق وكان أكثر ما تمكنا من فعله هو تلعثم مرعب في الظلام قبل السنة الجديدة، لأني كنت مصرة على أني كبرت على ربطة العنق المدرسية وقلق المراهقة ومرحلة التراشق. لكن شهدني منتصف مارس راغبة بشكل محتوم في شيء كنت أعرف أنني لا ينبغي أن أرغب فيه. كان

الاضطرار لمشاركة أريكة مارك ذات ليلة، نشاهد فيلما حربيا من الخمسينيات بينما يتظاهر ويل أنه نازي، وهي ما كانت ربما نقطة التحول. ذكرني ذلك على نحو غامض بحوارات أجريتها أنا وداف حول العنصرية، حيث كان يدعي أنه نازي جديد ببساطة كي يثير نوبات غضب طفيفة، قائمة على إثارة جروح محتقنة. كانت تلك الحوارات هي الأجزاء الأسوأ من عملية ارتباط أرواح عاطفية. والمفارقة، أقسم أنها من منطلق وحدة خالصة، رغم أني لم أكن لأعترف بذلك لنفسي قط، ناهيك عن أي أحد آخر في ذلك الوقت، كان الجزء الثاني من الحوار، الذي بدأ تلك الليلة بحذاء ويل ماركة آيروووكس في وجهي، وكوعيّ ملتحمان في فخذيه داخل قماش الجينز، كان أفضل الأجزاء لوحش بازغ لو أطلق عليه أحد «علاقة» لكان هذا مثيرا للضحك.

ابتكري كلمة تصف رجلا يبدو لك متحذلقا للغاية ومتملكا ومولعا بالجدل، حتى تبدأي في الاعتقاد أنك بالفعل قد تزوجتِ الشيطان، ويالللجحيم، لقد قابلتِ للتوّ ويليام ميلزي. أم ربما كان اسمه ميليز. وللحظة أردت أن أتخذه اسما.

عرفت ثقل وعمق ولون الكذبة المرسومة بقلم رصاص سميك والتي قلتها حتى قبل أن أفتح فمي. وبقدر ما ربما يبدو هذا اعترافا، قلتها لأدافع عن كل أكاذيبي السابقة. عندما نشرع أنا وويل في هذه الممارسة الجنسية اللطيفة، يعتقد هو بقوة أني

كاذبة شديدة الفسق. يتوقع مني أن أنصرف وأنام مع شخص آخر في اليوم التالي؛ وكي يحمي نفسه من الأذى، لا يتورع عن مناداتي صراحةً بالفاجرة. لا أعرف حتى من أين جاءت أفكاره، لكني أتخيل أنها معتمدة بشكل محدود على صداقة حميمة بميني. أريد أن أفعل كل شيء بوسعي كي أطرد هذه الافتراضات وأصفي الماء بيننا، لذا أقول في أسرع وقت ممكن... أحبك.

وهكذا، من وقتها فصاعدا علقنا أنا وويل معا في حلقة من الشعور بالذنب والأمل والشك والثقة التي في غير محلها ولمسة من الانجذاب الجنسي. كل واحد منها ملضوم بكلمة «الحب» التي هي في حد ذاتها كذبة.

كان ويل مريضا عقليا بجد، نتيجة «لاستغلاله»، وقضائه وقتا أكثر من اللازم في حجرة نومه، يستمع إلى ألبوم «**Holy Bible**" لفرقة مانيكس. رد فعله لأي شيء لا يسير بشكل جيد على طريقته هو أن يجرح ذراعه أو صدره أو يحلق شعره. وأنا، في هذه المهمة لإثبات نفسي كإنسانة ذات أخلاق، أحاول أن أقوم بهذا أيضا. من السهل وصف الأشياء بهذه الطريقة الآن، لكن لو كنت صادقة على نحو قاس وقتها، لقلت إن هوة مشاكله التي لا قرار لها كانت هي نقطة الجذب الحقيقية. لأنه كما يعلم الله، كانت هوة مشاكلي الخاصة متوارية في ذلك الجزء من مخك الذي تمضي إليه الأشياء عندما تريد أن تنساها مع مرور الوقت.

في وقت مبكر جدا من هذا الصراع، نخطط لرحلة إلى ملهى كلوب متروبوليتان في كارديف. ستيشن ومارك وأخت مارك وميني وأنا وويل؛ لا يظهر ويل فقط لأنه يشعر أنه مريض أكثر من اللازم. نشتري أنا وستيشن جراما من الأمفيتامين، ونتقاسمه؛ وأنصرف أنا لأرقص بسعادة وحدي. ثم أرى شخصا هو صورة طبق الأصل من داف؛ وتذهب ميني، التي منذ أن صرت أقضي مقدارا كبيرا من الوقت في يبت ويل تريد أن تقلب تكتيكاتها للتوفيق بين الأحبة، وتأتي لنا بدعوة إلى حفل في بيته. نذهب إلى هناك بدلا من الإقامة المفترضة في بيت أخت مارك. في طريقي للخروج، أقول لمارك: «من فضلك لا تخبر ويل.» أنام في فراش شبيه داف، بينما ينام هو على الأريكة ويوصلني إلى البيت في الصباح. وفي هذه الأثناء يقوم مارك بإخبار ويل.

أذهب إلى الحانة في الخميس التالي وعلى بطني وشم بالحرف الأول من اسم داف. حصلت على هذا الوشم لأن المقابلة مع شبيه داف تخبرني أني أفقد كل إحساس بداف، وكل ذكرى كذلك؛ وأنه من الأفضل أن أحتفظ به في أحشائي حيث يمكنني أن أبقي عيني عليه. لا يتحدث ويل إليّ، ناهيك عن أن يطلب مني أن أرحل. ينهض لأداء بعض الأغاني الفردية. أبكي طوال الطريق. لذا، يسير معي إلى البيت. الخطة هي أن نتحدث، لكني أظل صامتة. وعندما نقترب من بيته، يتبعنا رجل غريب مشلول في منتصف عمره، ويبدأ في الحديث عن الدين بحماس مفرط. وعندما ينعطف ويل

من أجل دخول شارعه، يقبض على يدي. يقول: «لا يمكنني أن أتركك تسيرين معه..» نتقاسم فراشه، بثيابنا، أنا باكية، وهو يعيد تمثيل دور ضابط التحقيقات. حتى ذلك الوقت لم أكن قد أخبرته أني بريئة. أشعر بالفعل أني قد فشلت.

تغيب ويل ذلك الصباح عن المدرسة، وذهبنا إلى الملعب حتى يتمكن من إكمال التحقيق معي. «لماذا طلبتِ من مارك ألا يخبرني؟» صمت. «إنه أفضل أصدقائي، وهو ملزم بإخباري، لذا لماذا طلبت منه؟» صمت. «هذا شيء منحط فعلا يا ريبيكا.» دموع. «أجيبيني.» دموع. «تحدثي إليّ. توقفي عن البكاء، انظري إليّ، أجيبيني.»

"هذه هي الإجابة. هذا هو ما يحدث عندما يخبرك مارك."

"لماذا ذهبتِ في المقام الأول؟ إذا كنت تهتمين، إذا كنت تحبينني، تحدثي إليّ. إلاما يرمز حرف **D** ذاك؟ الأشخاص الذين يضعون وشما أغبياء. يمكننا فهم هذا، تحدثي إليّ.»

فقط أجلس خرساء وكأني لا أستطيع حتى سماعه. في لحظة ما أشعر وكأني أود أن أتكلم، لكني لا أستطيع أن أجد القوة كي ألم شتات الكلمات. ربما أنا حتى لا أبحث عنها. وبشكل طبيعي، أبكي بدلا من ذلك، لكني أخفي وجهي. لم أفعل أي شيء خاطئ، لكني أشعر وكأني قتلت طفلا. أتذكر وقتا آخر في حياتي شعرت

فيه بشيء شبيه، منعني من الكلام أيضا. لكن هذا لا يقارن به، هذا شيء آخر. هذا أشبه بالوقوع في فخ زواج عنيف. يقول لك الناس أن تخرج من هذا بحق الجحيم وأن تكون أكثر سعادة، لكن بطريقة ما لا يمكنك أن تفعل هذا. كان يمكنني أن أرحل، أن أخبره حتى أني مذنبة، وأوفر على نفسي عاما من الألم، لكني لم أستطع القيام بهذا. لم أستطع حتى أن أنهض، فقط كان عليّ أن أستمر في البكاء، وآمل أن يتوقف في لحظة ما ويضع ذراعيه حولي.

وقتذاك، كان العلاج النفسي والاستشاري شائعا حد الموضة. كان ويل يحصل عليه كل ثلاثاء. لكني لم أتلقَ قط، ولا حتى عندما كانت الدعوى القضائية جارية، أي علاج طبي للاغتصاب. تتطلب حالات الاغتصاب سنوات وسنوات من هذا العلاج. أساسا لأن أمي كانت تستخدمه كتهديد. «توقفي عن البكاء وإلا سأتصل بمستشار نفسي.» كانت تقول عندما تمسك بي وأنا أبكي خلال أسبوع الدعوى القضائية. لا أعرف لماذا لم أدعها تفعل ذلك قط. كانت تجعلني بهذه الطريقة أقول: "لا، سأكون بخير خلال دقيقة» وأحبس الدموع. أظن أني لم أرغب في إلحاق العار بها أكثر من ذلك. في النهاية، هي قادمة من عصر كانت الصحة والعلاجات العقلية بالنسبة إليه من المحظورات، وفي عقلها كانت مازالت كذلك إلى حد كبير. لذا تماسكت بإصرار، وأمتُّ كل شيء، ووضعت الماضي في مستقره الأبدي. لكنه لم يستقر قط،

كان يتجلى دائما في حلم أو في نكتة سخيفة في حانة، أو في الليالي الوحيدة على نحو خاص، في بيت وحيد على نحو خاص. هكذا أمتُّ نفسي بالإنكار والمخدرات، حتى أقرر ذات يوم أني أود أن أكون طبيعية وسعيدة وأجد لنفسي حبيبا. وها أنا ذا، واعية وأقف وجها لوجه أمام الأمر. ضحية ضعيفة وبريئة، واقعة في موقف هش سببته أزمة شخص آخر وأساه وتنمره.

كان ويل يريد الأمان. كان يريدني أن أكون قفلا يحتويه، ويقاوم مفتاح أي شخص آخر. وأنا لست من حديد، أنا إنسان، كثيرا ما شعرت بشعور غير إنساني، لكنه كان شعورا بلاستيكيا، وليس أبدا شيئا صلبا كالفولاذ المقاوم للصدأ. كنت مخلصة كما يمكن أن يكون الإخلاص. وكنت دائما كذلك، لكن ويل كان يريد المزيد؛ ظل يتقصى ويتساءل ويرغب ويتطلب. أخبرته أني لم أنم قط مع ذلك الفتى. لم يكن هذا جيدا بما يكفي. «لماذا ذهبتِ؟» ذكَّرني بشخص ما. لم يكن هذا جيدا بما يكفي. ذلك اليوم توقف ووضع ذراعيه حولي. ذهب إلى المدرسة وذهبت إلى البيت، فتحت ذراعيّ بنصل، وأخرجت كل ما كان ينبغي أن أبوح به في الملعب.

لا أتذكر الخروج على الإطلاق بين مارس 1996 ويناير 1997. قضيت كل لحظة فراغ لديّ في حجرة نوم ويل. أشاهد التليفزيون أو أستمع إلى فرقة (سماشينج بامبكينز). لا أشاهد أي

حلقة من برنامج (لديّ أخبار لك) لأنه يظن أني أحمل شيئا تجاه المذيع أنجوس دايتون. وكنت كذلك بالفعل. جعلت أصدقائي يسجلون الحلقات لي، وكنت أشاهدها في الكلية خلال الغداء. لم أستطع القراءة. كان هذا جهلا. واكتسبت مقدارا كبيرا من الوزن، لأنه لم يكن هناك الكثير لأفعله غير أكل كميات هائلة من رقائق البطاطس والشيكولاتة. مارست الكثير من الجنس، من منطلق الملل بالأساس؛ لكن ويل اعتقد أن الأمر غير طبيعي وتساءل كيف أمكنني العيش بدون ذلك خلال أيام الأسبوع. وصلت متأخرة ذات مساء، لأني مكثت لترتيب بعض الاتصالات الخاصة بالمجلة. كنت أتصل بالهاتف، وأسجل أرقاما بينما أنتظر من الناس أن يردوا، وخربشت بعض الرسومات الهرائية على الصفحة. وعندما قبَّلت ويل عند وصولي، كان قد وضع يديه في جيبي الخلفي ووجد ورقة ملاحظات عليها اسم ورقم وقلوب مرسومة حولهما. مشاجرات. «سلو جين فيزي» اسم فريق ظنه اسم ملهى، «كيفين» اسم عازف جيتار ظنه موعدا. موضوع خطير.

إلى جوار الهاتف في حجرة نومه رقدت دمية سمَّاها ريبيكا. إذا لم أتحدث كفاية في الهاتف، أو إذا لم أقل الأشياء الصحيحة له، كان يضع دبوسا فيها. لم أشعر قط بأي ألم، لكن هذا كان يؤذي مع ذلك. ذات يوم ألقيت بالدمية في ركن الحجرة، وعندئذ ألقى بي. صار الوضع أخطر. شعرت بالخوف منه في هذه اللحظة. خائفة من البقاء وخائفة من الرحيل.

جرحت نفسي كثيرا في البيت. وفعل ويل المثل أيضا. أعاد ويل تقديمي إلى هذا الأمر بطرق عديدة أكثر. ليلة معه كانت تساوي غرزة أو اثنتين. وجدت أمي الكثير من الدماء في البيت ذات يوم، وأمرتني أن أذهب وأعيش معها ومع مارتن. هكذا. كأن السرقة والمخدرات والجنس لم تكن أشياء كافية قبل ذاك؛ لكن مع أول نظرة للدم تخر واهية على ركبتيها. ماء دافئ، ملابس نظيفة، طعام على المائدة، كل هذا لم يكن يزعجني. جدل هنا وهناك، لقد عشت هناك منذ وقتها.

قضيت عيد ميلادي الثامن عشر جانحة مع ويل على شاطئ بورثكول. لحقنا حافلة وفوتنا آخر واحدة عائدة إلى الديار، وأنفقنا ما كان بحوزتنا من مال قليل على الكعك والفودكا لنبقى دافئين؛ وكان علينا انتظار والده حتى يأتي ويقلنا بسيارته في الصباح. كنت مرعوبة، مرعوبة حتى من شراء فودكا في يوم عيد ميلادي الثامن عشر، بينما كنت أشرب منذ كنت في الرابعة عشر. تذكرت وأنا في الرابعة عشر هروبي إلى نوتينجهام، والآن أنا أكثر تخوفا من أن أقضي الليلة في بورثكول، على مبعدة خمسة وعشرين ميلا فقط من الديار. بالقطع هناك شيء ما يتغير.

بحلول أغسطس كنت قد توقفت عن التسلل بآنجوس دايتون إلى الكلية، لأني كنت مرعوبة من أن يدخل ويل ويمسك بي. حلمت ذات ليلة أنه يتصنت عليّ، وبمقدوره سماع كل كلمة أقولها في

الكلية أو في أي مكان آخر حول ذلك الموضوع، ولم أستيقظ قط بالفعل. بدلا من ذلك، كان لديّ نصف إيمان بأنه يستطيع ذلك، وتوقفت عن الكلام حول آنجوس دايتون أو الاستماع إليه.

لقد سلبني الكثير بطلباته وأسئلته، وجردني من كل شيء. أول ما ضاع كان لون شعري، ثم أخذ ثيابي، وغير ملابسي الداخلية. غيرها كلها إلى ملابس قطنية ومنقوشة بالزهور؛ لأن العاهرات فقط من يرتدين الحرير الأسود. وبعد ذلك بدأ حملته الصليبية الفردية لغسل المخ، وببطء نحت شخصيتي. أرقد روحي على ظهرها وقتل فيها كل حركة. جعلني أتكلم، جعلني أخبره لماذا لم أكن أحب أن أتكلم، وفرد كل ثنية في قصة حياتي. انتزع مني أشياء وغلاها إلى درجة التكثف.

كان يعرف ما يفعله، أو ربما بدا الأمر فقط هكذا لأني لم أكن أعرف. كرهت ذلك. كرهت ما بدأ بسؤال: «لماذا أنت بائسة هكذا؟» لم أفهم إلى أين يمكن للاضطراب الذي يسببه تفسير ذلك أن يؤدي بأي أحد. في ذهني، كان كل ما نحاول فعله هو تحقيق أقصى استفادة من علاقة حب كارثية، ولم نكن بحاجة لاستخراج أي خراء سيكولوجي كي نجعلها أسوأ مما هي عليه. كانت لدى ويل أفكار أخرى، ولا أعتقد أني سأعرف أبدا ماذا كانت.

إنه لشيء مؤلم أن تتمزق حياتك إربا أمامك، وكأنه يجري انتزاع مقلتيك وتتمكنا من الرؤية خارج وجهك. تشاهد ذكريات

خابية لنفسك تختفي وراء الأفق، بينما تقول: «لن آخذ حبة أخرى من المخدر». لا بأس، أعلم أن إدمان المخدرات ليس ذلك النوع من قوانين العيش المنطقية التي ينبغي أن تتمسك بها، لكن عندما يكون هو كل الشخصية التي امتلكتها في حياتك بالفعل، يكون من قبيل التكدير أن تضطر لقول وداعا له. من المؤلم أن تدرك أنك تغدو شخصا ليس هو أنت.

كان ويل يهزمني، ويأخذ كل شيء كان يشير إليه اسمي. استلب كل طاقتي. أخذ حياتي، وألقى بكل ذكرياتي إلى الخراب. «أنت تقتلني» هكذا كان يقول لو حكى أحدهم نكتة تهدهده حتى يشعر بالضعف. لا، كان هو من يقتلني، كنت أتشكل على قالب من صنع رجل. شيء يمكنه أن يُخرجه ويعبث به هنا وهناك؛ مادة لدنة. ومع ذلك لم أرحل. ومع ذلك ظللت أعطي. وما بين الدماء التي أهرقتها في الحمَّام، والمشاعر التي بددتها، كنت أغدو جوفاء بسرعة.

رأيت توازيات كثيرة بين ويل وزوج أمي. كان ويل يغتصبني، عاطفيا، مرة بعد مرة بعد مرة. كان يسرق أشياء في الأصل ملكي ومن حقي، ولم أخبر أي أحد قط. كنت خائفة، خائفة من أن يظن الناس بي الجنون. خائفة مثل كل هؤلاء الأطفال المعتدى عليهم، من أن تكون هذه غلطتي في العمق، من أن أكون في العمق فتاة سيئة كانت تستحق هذا. والكراهية التي انطويت عليها سرا نحو

ويل وهو يأخذ ويأخذ ويأخذ، تساوت مع الكراهية التي شعرت بها نحو زوج أمي لسنوات كثيرة جدا وهو يأخذ ويأخذ ويأخذ. كنت أحلم يوما بقيادة السيارة إلى أبيردير ومعي غدَّارة وفي اليوم التالي لا أفعل. في اليوم التالي كنت أريد فقط أن يتوقف ويل ويضع ذراعيه حولي.

لم يفعل ذلك قط. ظل يأخذ، حتى اليوم السابق على الكريسماس عام 1996، عندما أخذ الجزء الوحيد الباقي. أخذ الحياة التي كنت قد شيدتها لألبي كل حاجاته.

كان الجدال سخيفا فعلا. لم يعجبه الحذاء الذي اشترته لي أمي، ولم يسمح لي بالذهاب للقيام بالتسوق من أجل الكريسماس مرتدية إياه. أمرني بالرحيل إلى البيت وألا أعود مرة أخرى.

أي شخص استيقظ بعد قضاء الليل بطوله وذراعه تحت الثقل الكامل لجسده، سيعرف معني كلمتيّ «خدر» و»همود». والآن تخيل أن كل طرف وكل عضو في جسدك يشعر بهذين الإحساسين، وستقترب قليلا من الطريقة التي شعرت بها وقضيت الكريسماس. شاهدت أنجوس دايتون يأتي بعام 1997 على شاشة البي بي سي، لكني لا أظن أني ميزت كلمة مما قاله.

17

كان التأقلم على العيش مع أمي ومارتن سهلا وصعبا في نفس الوقت. سهل لأني كنت أعرف أين يجري الاحتفاظ بأدوات المائدة، وسهل لأني كنت أعرف أي حجرات النوم تخص من. صعب لأني اكتشفت كم كانت أمي غريبة بالفعل. صعب لأنها لم تكن الشخص الذي ظننت دائما أنها عليه. ومع ذلك، لم يتغير أي شيء. كانت مازالت تحب شرابها، مازالت تحب موسيقاها: موسيقى الكانتري والويسترن، لكنها كانت أكبر سنا، ولم أعد أخشاها. شاهدتها وهي تضع زينتها وتخرج مع مارتن، تماما كما كانت تفعل دائما. لكني كنت أريدها أن تفعل ذلك أكثر من أي شيء آخر؛ لأن منظر وجهها الشائخ كان يزعجني. أزعجني كثيرا، أن أرنو إلى امرأة تعاني من التهاب المفاصل لم تعد تمتماتها الحزينة الآن تعني أي شيء، لكنها جعلتني ذات مرة أذهب إلى حجرتي بعينين دامعتين. رحلت صورتها الشبيهة بكرويلا دي فيل[43] الجميلة المتسلطة المخيفة التي استحضرتها، ولم يبق إلا معجبة من نسل منقرض بمسلسل إميرديل، تظن أن المصابين

43- شخصية خيالية ابتكرتها الروائية دودي سميث بصفتها الشخصية الشريرة في روايتها التي صدرت عام 1956 بعنوان The Hundred and One Dalmatians.

بالإيدز ينبغي أن يوضعوا فوق قمة جبل معزول.

خلَّف الزمن أمي وراءه، ولم يعجبني هذا إطلاقا. كان ذلك هو الشيء الوحيد القوي بما يكفي لجعلي أرغب في أن أكون طفلة من جديد. بعد العاشرة مساء والكثير من الويسكي، كانت تفرغ على مسامعي إحساسها بالذنب والحسرة على كل شيء مررت به. «أنا آسفة، أنا آسفة، أنا آسفة، كان ينبغي أن أكون هناك» لكن كان الأمر ينتهي دائما بـ «لكن كان ينبغي بك أن تخبريني» وبالتالي تقضي على أي اتهام للذات. لكن هذا لم يكن يعني لي شيئا الآن. كنت أكثر ارتباكا وأكثر بلادة من تذكر أي شيء، ناهيك عن لوم أي أحد عليه. لذا كنت أكتفي بتشغيل بعض الأغنيات لدوللي بارتون ودعوتها إلى الرقص؛ قليلا مثلما كان الحال عندما كنت صغيرة، غير أني الآن أشعر وكأني أنا الأم.

كانت جدتي تحتضر من السرطان؛ عرفنا ذلك منذ فترة. دخلت أمي حجرة النوم في البيت القديم ذات صباح، أعطتني سيجارة وأخبرتني. تظاهر ويل بالنوم، حتى يتمكن من الاستمرار في الاعتقاد أنه الشخص الوحيد في العالم الذي لديه مشكلات. ذهبت جدتي إلى المستشفى لاستئصاله، لكن هذا لم يحدث قط. أجرت ثلاث عمليات وكل عملية كانت تجعلها أضعف. عرفنا الآن، كانت تموت بالفعل. لم يستطع الأطباء منحها ولو شهر.

كنت قد خططت لقضاء يوم الكريسماس معها لأننا عرفنا أنه

بالتأكيد سيكون الأخير بالنسبة لها؛ ومع ذلك لم أستطع. قضيت اليوم في القراءة. أقرأ وأقرأ، لكن دون رؤية أيٍّ من الكلمات. وعندما انتهت ليلة رأس السنة، كانت جدتي بحاجة لأحد يعتني بها ليلا. سألتني العائلة إن كان يمكنني أن أقوم بهذا حتى يحين موعد وجوب عودتي إلى الكلية. ووافقت على مضض.

كانت الليلة الأولى مرعبة، لا لأني شعرت بأي حزن أو إحساس بالفقد، لكن لأني شعرت وكأني ممرضة ليلية تراقب دون تعاطف امرأة غريبة، متروكة وحدها لتموت. وعندما صنعت لها في الصباح خبزا محمصا من قطعة خبز جيدة، ووضعت عليها مقدار بوصة من الزبد الذائب، وسألتني إن كنت قد دهنتها بالزبد، لم أبكِ لأن جدتي كانت تفقد عقلها، بل قلت: «بالطبع هناك زبد يا تيتة» وعدت إلى المطبخ كي أغسل الأطباق. كنت أشعر بالغيرة أكثر من أي شيء آخر. كنت أشعر بالغيرة من جدتي لأنها كانت تموت وكنت أنا أريد أن أموت. هي، بشهية طيبة وبيت عامر بالممتلكات وعمر من قصص الحرب المبهرة، الملضومة بقصص الفقر، والزواج، وتنشئة أربعة أطفال وحتى المزيد من قصص الأحفاد، كانت تحتضر. وأنا، أنا دون حتى فكرة واحدة في رأسي، كنت أعيش. فقط لم يبدُ هذا صحيحا.

كانت جدتي امرأة قوية. عملت طوال حياتها. وُلدت في مدينة كارمارثين، ورحلت إلى لندن في سن الرابعة عشر لتتزوج.

عملت طوال الحرب، في قيادة الحافلات، وتوصيل القوات حول بريطانيا، وكانت المرأة الوحيدة في المقاطعة التي فعلت ذلك. انتقلت إلى رونذا عندما قابلت جدي، وقامت بتنظيف كل حانة في تروركي. كان أطفالها من تلقوا أفضل تغذية وملبس؛ وكانوا أول عائلة في رونذا تحظى بتليفزيون وسيارة. كانت جدتي امرأة طيبة، وظلت امرأة طيبة حتى الدقيقة التي ماتت فيها. أخذتُ أول قطفة من دولاب ملابسها، وأخبرتني أن بمقدوري الحصول على ماكينة خياطتها، الشيء الوحيد الذي كانت تمتلكه وله أي قيمة عاطفية. أخبرتني أي التراتيل تريدها أن تغنى في جنازتها، وأخبرتني أن عليها الانتظار حتى يوم الثلاثاء التالي كي تموت؛ لأن أفراد جماعة (جيش الخلاص) لديهم جدول مشحون في عطلة نهاية الأسبوع، ولم ترغب في أن يدفنوها كذلك.

فقط لم يبدُ هذا صحيحا. من الخطأ أن تموت، ومن الخطأ أن أعيش. أنا نصف ميتة على أي حال، أسير في الحياة وقد اختفت جميع أوراق اعتمادي. بدا وكأنه لم يبق إلا الجانب البيولوجي. أما جدتي، حسنا، كان الجانب البيولوجي فيها يشحب أكثر وأكثر، ومع ذلك لو حكمنا بالقصص التي أخبرتها لي، القصص التي قالت إنها لم تحكها لأحد آخر قط، كان عقلها ومشاعرها يغدوان أعمق وأعمق. فقط لم يبدُ الأمر صحيحا على الإطلاق.

في نفس اليوم، مبكرا في المساء، وسط الاستعداد للعودة إلى

بيت جدتي، حاولت أن أقتل نفسي بحساء من الباراسيتامول. لم يكن ذلك نتاج خطة مدروسة خاضعة لتفكير طويل، فعلا، بل لم تكن شيئا على الإطلاق. ضفرت شعري على الجانبين أمام مرآتي ورغم ذلك فإن المجهود المؤلم للعضلات طوال خمس عشرة دقيقة لم يؤثر كثيرا على تفكيري. لذلك ذهبت كي أمزج كوكتيلا، بطريقة طبيعية كما لو أني ألتقط حقيبتي الليلية وأنطلق خارجة إلى الطريق. لا يمكنني تفسير أفعالي، لأنه رغم أني أتذكر الدقائق المؤدية إلى ذلك بوضوح كبير، لم يكن هناك تسلسل للأفكار مصاحبا لها. فقط هكذا حدث، كما لو أن كل جزء آخر مني كان قد طفا على نحو غامض بعيدا عما دعوته الآن «بأناي» وكان مقدرا للجزء الخاص بالسير والحديث وصنع الخبز المحمص أن يتبع ذلك بشكل محتوم.

كانت هناك لمحات جزئية من أخي، من التقيؤ، من الماء بالملح، ومن أمي وهي تعبر عن قرفها بالنيابة عن جدتي، قبل أن أموت بالفعل.

في اليوم التالي عدت إلى بيت جدتي، أطهو دجاجا لصنع سلطة، وأصنع شايا للناس الذين أتوا لتوديعها، لكن قضوا ساعات دون أن ينطقوا بالكلمة. وعندما رحلوا جميعا، شربت روز وحفيدتها الويسكي معا وشربا نخب قدوم حياة جديدة، سرًا لنفسيهما. كانت رأسي مليئة الآن بالاحتمالات. اختيار الجامعة،

والحصول أخيرا على رخصة القيادة التي كان يتم الحديث عنها كثيرا جدا في مكان آخر «للتفكير وليس للفعل». ربما بعض العمل الخيري في مطابخ الحساء في نيويورك، أو ربما رواية عن كائن أكثر حظا عاش حياته في صهريج ماء.

شعرت كثيرا بنفس الشعور تجاه جدتي، مدركة أنها جدتي التي أحببتها واحترمتها كثيرا جدا، لكن بكل الغيرة التي أفرزها العقار المسكن، كان شعوري عمليا. أردتها أن تموت في أقرب وقت ممكن، وبالتالي يُقضى على أكبر قدر ممكن من الألم. أردت لها أن تنتقل بهدوء إلى مكان أفضل، المكان السعيد الذي كانت تؤمن به كثيرا، المكان الذي لا ألم فيه والذي كانت تستحق بشدة العيش فيه. ومع تنامي استعدادي لتقبل العالم، مثل هيكل سيارة فورد بُنيت لتكون مرسيدس، كان استعداد جدتي لمغادرته يتنامى. ماتت جدتي يوم الثلاثاء التالي كما هو مخطط، لكنها منحتني ما هو أكثر من اختيار الثياب وماكينة الخياطة، منحتني الشخص الذي يكتب هذه الجملة. منحتني كنزا من القصص والأمثلة والمعايير للعيش بها، وأسبابا لشق طريقي مقاتلة إلى حيث أريد أن أذهب. أسباب للاستيقاظ في الصباح وجعل اليوم شيئا ناجحا. منحتني سببا للتفكير في نفسي كشخص جيد له قيمة، لو فعلت فقط نصف ما فعلته بحياتها. زودتني بكل ما سأحتاجه لبدء حياة جديدة قوية من صنعي أنا. أقوى امرأة عرفتها في حياتي أورثتني قوتها كهدية مغلفة.

ريتشيل ترايزيس/ كاتبة ويلزية من مواليد 1978، فازت روايتها الأولى (داخل وخارج حوض السمكة الذهبية) بإحدى جوائز أورانج فيوتشرز عام 2001. ونشرت مؤخرا طبعة جديدة منها في سلسلة (مكتبة ويلز)، وهو مشروع يقوم بإعادة نشر الأدب الويلزي الكلاسيكي باللغة الإنجليزية. وفازت مجموعتها القصصية الأولى (تفاحات طازجة) بأول جائزة من جوائز ديلان توماس الدولية عام 2006. أما مجموعتها القصصية الثانية (كوزميك لاتيه) ففازت بجائزة إيدج هيل الخاصة بالقراء عام 2014. عُرضت مسرحيتها الأولى (تونيبانديمونيوم) في مسرح ويلز القومي عام 2013 وفازت بجائزة نقاد المسرح في ويلز لأفضل إنتاج. قُدمت مسرحيتها الثانية (مازلنا هنا) على مسرح ويلز القومي لأول مرة عام 2017. أما مسرحيتها الأخيرة (أصابع قطنية) المكتوبة أيضا من أجل المسرح القومي الويلزي فجابت آيرلندا وويلز مؤخرا. وتم اختيارها في مهرجان إدنبره فرينج 2019 كواحدة من أفضل العروض في المهرجان وحصلت على جائزة سمرهول لاستروم.

ويود المترجم أن يعرب عن عميق شكره لتعاون الكاتبة الكبير ومساعداتها في تفسير الكثير من الصعوبات التي واجهته أثناء ترجمة العمل.